

القسم الثالث

خطط الدراسة ومناهجها

نعم هناك خطط للدراسة، وهناك مناهج ، لا يمكن أن يتخطاها الطالب ، أو يتعداها الشيخ ، أو تعارضها المشيخة . ولكن ماهي ؟ ومازمنها ؟ ومتى تبدىء الدراسة ؟ وكيف تنتهى ؟ كل ذلك مرسوم عملا ، لا قولاً . فهى أشبه بقوانين غير مكتوبة

Unwritten Laws

فالواقع هو الذى يبدأ السنة الدراسية ، وهو الذى يختتمها . والعمل هو الذى يبدأ اليوم الدراسى ، والفراغ منه هو الذى يختتمه ، فلا ساعة معينة ، ولا إشارة للبدء والختام ، بل شروق الشمس وغروبها يقربان ذلك ، والصيف والشتاء يقدران بعضه ، وليس هناك إلا تعليمات يسيرة عن نظام امتحان العالمية والامتحانات الرسمية تجعلها خاضعة لبعض القوانين العامة أو الخاصة ، التى يتبعها الأزهر الشريف فى ذلك .

السنة الدراسية

١ - نحن الآن ضحي يوم سبت من شوال ، بعد انقضاء ثلاثة أشهر أو أكثر على الإجازة السنوية . ليس بالجامع من الطلبة غير عدد من اعتادوا البقاء فيه من أهل طنطا أو البلاد المجاورة ، وغير أفراد ممن سثموا طول الإجازة ، أو هربوا مما كانوا يكلفونه من أعمال الفلاحة في قراهم ، أو ممن ألجأهم آباؤهم إلى السفر محافظة على ابتداء الدراسة ، مثلى .

فى هذا الوقت عقدت حلقة أمام الأسطوانة الثالثة من الصف القبلى ، على يسار الداخل لمقام السيد البدوى ، قوامها شيوخ ملتحمون بلحمى بيضاء ، ومعممون بعمامات كبيرة ، وأمامهم محافظهم الحقيقة ، أو محافظ من الجلد الأصفر الذى اسودّ بعضه من طول العهد بالقبض عليها . كل أولئك طلاب من قدامى الطلبة أو المعيدى ، يحضرون درس تفسير أبى السعود ، الذى كان يقرؤه المغفور له الشيخ ابراهيم الظواهري ، شيخ الجامع فى ذلك الوقت .

ولكن لماذا عقدت حلقة الدرس هنا ، وعهدنا بها دائما أن تكون فى الطبق الثانى بإحدى حجر الإدارة ، لمنزلة الشيخ بين علماء الجامع ، ولضعف صوته ، فلا يستطيع أن يتكلم بصوت

عال ، إذا هو درّس في الجامع ، بين ضوضاء الطلبة ،
وأصوات الزائرين ؟ !

إنه ينزل اليوم فقط إلى الجامع ليقراً درسه هنا ، وكان
متعذراً على صغار الطلاب مثل قبلا ، أن يستمع لشيخ الجامع في
درسه هذا في مكانه الدائم ، ولكن في هذا الوقت — وقت
العطلة — حُبب إلى أن أجلس هنا بين كبار الطلاب ، أو شيوخ
المجاورين ، أو طلاب العالمية ، وقد أصبحت أحسن
جلستهم ، فأتى ركبتى وأنحنى إلى الأمام ، كما ينحنى من يقارب
السجود ؛ على أنه ليس في الجامع الآن مدرس واحد ، حتى ولا
أستاذنا المغفور له الشيخ مصطفى الجندى ، مع أنه من سكان
طنطا ، ومنزله على بضعة خطوات من الجامع !

ها هو ذا الشيخ الكبير في طريقه إلى الدرس ، قد دخل
كعادته ، من باب السر ، ومر بالمقام ، وقرأ الفاتحة أمام
مقصورة السيد ، وخلفه الجندى أو المشد ، ثم خرج من بابه
الثانى ، وهو شيخ عارك الدهر وعركه ثمانين عاما ، وقصد إلى
رأس الحلقة بجوار الاسطوانة ، فتربع فوق فروة وثيرة . وما
إن شعر الطلاب بقدومه حتى هروا جميعا إلى أماكنهم في الحلقة
وكان لى نصيب منها ، فأخذت مقعدى بينهم ، وبدأ الشيخ يفسر

قوله تعالى في سورة المائدة « وكلوا مما رزقكم الله حلالا طيبا ،
واتقوا الله الذي أنتم به مؤمنون » .

أخذ الشيخ يشرح ويفسر ويحقق ، ويسرد آراء المفسرين
والمؤولين ، حتى أوسع الآية تدقيقا وتأويلا ، وأشبع الطلبة
مراجعة ومطالعة ، وفيما هو كذلك ، إذ بسيدة من زوار السيد
خرجت من باب المقام تحمل في يدها مقدارا من « القراقيش »
أو الفرني المعجون بالسكر ، فراعها أو أعجبها هذه الحلقة الوقور ،
شيخا وطلابا ، فنثرت ما في جعبتها من هذا الفرني اللذيذ ، حتى
غطت الحصري وسط الحلقة بطبقة منه . كل ذلك والشيخ منهمك
في الشرح والتفسير ، وجميع الطلاب مصغون إليه ، فلم يتحرك
واحد منهم ، احتراما لشيخ الجامع ، ولدرس التفسير ، ولستهم
العالية . ولكن الشيخ بعد أن أتم تفسير الآية ، سكث قليلا
بهم قال مشيراً إلى الطلبة : « كلوا مما رزقكم الله حلالا طيبا ! »
تخطفنا في أدب وهدوء تلك اللقيات اللذيذة ، أو تلك الهدية
أو ذلك النذر ، ولو كنا في غير هذا المكان أو هذا المقام ، لداهم
بعضنا بعضاً ، وداس قويتنا ضعيفنا في سبيل الحصول على واحدة
أو اثنتين من هذا الفرني ، كما اعتدنا أن نفعل ، عندما يحضر
بعض الفلاحين شيئا من الذرة المشوية ، أو قرصاً أو غيرها ،
يقذف بها في صحن الجامع أو في المقام .

يأتري ! هل يعود الشيخ غدا إلى هذا المكان ، فينقى درسه
التالى فى التفسير ، حتى نأكل مما يرزقنا الله حلالا طيبا ؟ ! كلا ! إنه
الدرس الوحيد فى العام ! إنه إعلان افتتاح الدراسة فى الجامع أول
السنة الدراسية . وعما قريب ينتشر خبر ابتداء الدراسة ، فيتوافد
الشيوخ والطلاب ، رويداً رويداً ، بعد أن يطير إليهم النبأ على
لسان التجار الذين يحضرون سوق طنطا (يوم الاثنين) أو على
لسان الزوار الذين اتصلوا ببعض الطلاب السابقين إلى الجامع
أمثالى . وقد يسافر الطالب قبل رحيله الرسمى ، ليرى هل حضر
أحد من الطلبة فى الجامع ! وهكذا يمتد توارد الطلاب وابتداء
الشيوخ فى الدراسة أسبوعاً أو أسبوعين بعد ذلك . فليس هناك
سنة دراسية محدودة المبدأ والنهاية بالضبط فى يوم معين ،
ولا قانون خاص بذلك .

وكما بدئت الدراسة شيئاً فشيئاً ، فإن الطلبة يأخذون فى
التسلل من الجامع ، زرافات ووحدانا ، قبل إجازة الصيف
غير المحدودة ، . أو قبل مساححة ثلاثة الأشهر ، رجب
وشعبان ورمضان ، أو قبل مساححة موالذ السيد البدوى ، فكما
حضرنا بعد ابتداء الدراسة بشهر ، كذلك ينصرفون قبل انتهائها
بنحو ذلك . وكذلك يفعلون فى مساححة عيد الأضحى ، ومولد
النبي ، وغيرهما من المساححات القصيرة فى المواسم .

وقد تلاحظ المشيخة تسرع الطلاب في السفر قبل الإجازة بأيام كثيرة ، فيمر الجندى أو الملاحظ لينبه المشايخ في دروسهم على أن الإجازة لم تتقرر ، وأن الدراسة يجب أن تستمر أسبوعين آخرين أو ثلاثة . ويختلف الشيوخ في درجة استماع هذا التنبيه وإطاعته أو عصيانه ، فهم أحرار : يغيبون متى شاءوا ، ويحضرون للتدريس متى أرادوا . أما الطلاب فلا يضطرون إلى الوجود بالجامع إلا عند الفرز أو الحصر كما رأيت . ولم يكن للشيخة عهد بإعلان مواعيد المساحات أو نشرها في الصحف كما هو مألوف الآن . ولم تألف إعلان ابتداء الدراسة أو انتهائها بالكتابة مطلقا ، حتى ولا على جدران الجامع أو في مكان خاص بالإعلان .

وما يلحظ أن هذه المواعيد لم تكن معروفة بينهم إلا بالتاريخ الهجرى ، يحددون به مواقيت الأجازات الرسمية ، ولا ريب في أن التاريخ القمرى غير مرتبط بالتاريخ الشمسى ، ولذلك ، اختلفت المساحات والعمالات .

أوقات الدراسة وموادها

يمتد اليوم الدراسي من بعد صلاة الفجر إلى صلاة العشاء ،
وتنعقد خلال هذه المدة حلقات الدروس نحو ست مرات :
(١) فبعد صلاة الفجر مباشرة يكون الدرس الأول ،
ولكن لا يزيد عدد حلقاته في الجامع على أصابع اليد
الواحدة ، لأنه يكون لكبار الطلاب غالباً . ويكون غالباً في
مادة التفسير والحديث والتوحيد .

(ب) أما الدرس الثاني فهو درس الشروق أو الصباح ،
ويكون كله في مادة الفقه ، وهي المادة التي يشترك في دراستها
جميع الطلاب من جميع الدرجات . وهو الذي يعتبر الدرس
الأساسي ، كما أنه يعتبر أول درس ، لندرة درس الفجر .

(ج) وينعقد في وقت الضحى حلقات قليلة أيضاً لبعض
كبار الشيوخ والمسنين أو الكسالى منهم ، غير أنها مهما قلت
تكون أكثر عدداً من درس الفجر .

(د) وبيلي درس الشروق أو الصباح في الأهمية والكثرة ،
درس الظهر . ويكون موضوعه غالباً النحو والصرف
أو البلاغة ، وهي المادة التي تلي الفقه في كثرة طالبها .

(هـ) أما درس العصر فيقرب في العدد من درس الظهر ،
وتكثر فيه دروس المتقدمين من الطلاب ، التي يدرسها
كبار الشيوخ .

(و) وآخر الدروس ما ينعقد بعد صلاة المغرب .
وأكثر ما تكون في الكتب الصغيرة التي لا تستغرق وقتاً
طويلاً . أو في آخر السنة خاصة . وإذا كان بينها درس لكبار
الطلبة في كتاب من المطولات ، فقد تزيد الجلسة فيه على ما بين
العشاءين ويستمر الشيخ مدة طويلة بعد صلاة العشاء .

هذه هي أوقات الدروس الستة في اليوم الدراسي ، وليس
من الضروري أن يحضرها كل طالب ، بل قد يحضر الطالب
درسين اثنين منها فقط ، وهذا عند كبار الطلاب لأهمية المواد
التي يدرسونها وقلة عدد كتبها . أما صغار الطلبة فقد يحضرون
في اليوم خمسة دروس لكثرة الكتب الصغيرة عندهم ،
أو لإعادة كثير منها على عدة شيوخ في أوقات مختلفة .

١ — ها قد فرغ الناس من صلاة الصبح عقب أذان
الفجر ، فهبّا يرتاد الجامع لمشاهد الدروس في أوقاتها
وموادها المختلفة :

هذا هو الشيخ ، قطب التلاوى ، جلس لقراءة درس
التفسير ! إن صوته يدوي في الجامع ، لقلة الطلبة فيه من

حفاظ المتون أو مراجعي الدروس ، ولأنه يكاد يكون الدرس الوحيد فيه . استمع إليه يبدأ الدرس بقوله : بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين ، سيدنا محمد النبي الكريم ، وعلى آله وصحبه أجمعين . أما بعد ، فإن أصدق الحديث كتاب الله تعالى ، وخير الهدي هدي سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، وشر الأمور محدثاتها ، وكل محدثة بدعة ، وكل بدعة ضلالة ، وكل ضلالة في النار . وبالسند المتصل إلى الإمام المؤلف رضى الله تعالى عنه قال . قال إيه يامولانا ؟ هكذا يتلو البداءة في الصباح الباكر ، بصوت عال مع الترنم الممزوج بالتواضع ، وعلى هذا النغم يستمر في درسه ، فيتأثر السامع به ، إن لم يكن لفهم المعنى ، فلحسن التوقيع والترديد ! ولم يكن المقرئ بأقل من الشيخ في الترتيل والقراءة مع الصوت ذى الحنين . تفرس طلبة هذا الدرس ! إنهم شيوخ كبار أجلاء ! يشبهون أولئك الذين كانوا يحضرون تفسير أبي السعود على شيخ الجامع ! وعددهم قليل أيضاً ، لأنهم صفوة طلاب الدرر الأولى ، وهم المنتظرون لامتحان العالمية . فرغ الأستاذ من الدرس مع الشروق ، فقام إليه هؤلاء الطلاب ، سكوتاً أو مع سؤال قصير ، يتعاقبون على تقبيل يده ، كما هي عادة الطلاب مع الشيوخ جميعاً . وقبل أن أنتقل بك إلى درس

آخر ، أذكر لك أن تفسير الجلالين مع حاشية الجمل ، كان التفسير المتداول قراءته ، وقلّ من يقرأ تفسير البيضاوى أو الفخر أو تفسير أبى السعود . أما كشف العلوم ، لجار الله الزمخشري ، فهم يناون عنه ؛ لما يعتقدون من اعتزال صاحبه ، وأنه كان يحكم فى التفسير « بعقله » ، ويدلى فيه « برأيه » ، وهذا كان مرغوباً عنه فى نظر العلماء ومن على شاكلتهم من الطلاب^(١)

٢- انجلى الصباح ، وكادت الشمس تشرق . تلفّت حولك فى الجامع ، فلا تجد اسطوانة (عموداً) إلا وقد التف أمامها حلقة من الطلاب ، فى انتظار شيوخهم ، وهام أولاء بدأ يسبق بعضهم بعضاً إلى درسه ، وقد تربع كل واحد منهم على فروة من الصوف فوق حصير المسجد ، مستنداً إلى العمود أو حوله . فلنطوف بالجامع لنفقد بعض هذه الحلقات ، ولا تعجب من نظامها ، فإنّ التعليم منذ بدء الإسلام كان بالمساجد حلقات ، وأول حلقة تعليم فى الإسلام كانت فى مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم ، حيث كان أصحابه يجلسون حوله حلقات ، يتعلمون منه سنن الإسلام وأحكامه ، ومن هنا كثر التعليم فى المساجد على هيئة الحلقات . نحن الآن أمام حلقة قوامها ٥٠ من المبتدئين ، يحضرون شرح « ابن قاسم الغزى » ، فى فقه الشافعى ، على الشيخ « ابراهيم

(١) انظر الجدول فى آخر هذا الفصل صفحة ١٨٨ .

نصار ، وهو يعيد قراءة هذا الشرح للمرة العاشرة ، لأنه أجاد
تدريس هذا الكتاب لصغار الطلبة ، فهو يمثل لهم بالعمل كيفية
الوضوء ، ويقف في وسط الحلقة ليربهم كيف كان النبي يغتسل ،
وقد ترى الطلاب أمامه مستغرقين في الضحك ، حينما يربهم كيف
يكون « غسل الميت » ، فيشمر عن ذراعيه ويتناول طالبا كأنه
جثمان الميت ، فيتهامس بعض الطلبة قائلين : أنتى له أن يجيد
هذه المهنة ؟

لنحرف نحو المحراب لنشاهد أمامه درس الشيخ « محمد الفقى » ،
إنه يقرأ شرح الخطيب في مذهب الشافعى ، ولكن الطلاب أمامه
خليط من طلاب المرحمة الثالثة وعدد كبير من طلاب المرحمة
الأولى ، الذين يعيدون المذهب ، أى أنهم حضروا أو قرؤوا
كل كتب المذهب مرة أو مرتين قبل ذلك ، ثم هم الآن يعيدون
قراءتها مرة أخرى . ألم تر هذا الشيخ يختلف عن غيره بأنه يجلس
على كرسى أو دكة من الخشب لها سياج ، فرش فوقها فروته ، فهو
يتكى على هذا السياج (الدرايزين) يمنة ويسرة ، كلما تعب من
جلسته ؟ لماذا اعتلى الشيخ هذا الكرسى ؟ إن صوته ضعيف ،
وطلابه كثير ؛ لأنه يجيد التحقيق ويطيل الشرح ، ويستغرق في
درسه وقتا طويلا ، ولهذا كثر عنده الطلاب المعيمرون الذين
يناقشونه القول كثيرا ، ويسألونه مرارا ، ويراجعونه تكرارا

لأنهم من طلاب الدرجة الأولى ! ارجع إلى الإيوان المجاور للبرازات تر درس الشيخ «مصطفى الجندى» وهو مكون من حلقتين . إنه يدرس أيضاً شرح الخطيب . تأمل بين طلابه هذين الشيخين الكبيرين الجالسين تجاه الشيخ ! إنهما من طلاب «المرمى الأولى» الذين يعيدون المذهب أيضاً ! انتظر حتى يفرغ الشيخ من درسه تجدهما يطالعون درس الغد لصغار الطلاب !

وهناك درس الشيخ «العريان» ، أمامه ثلاثة من طلاب الدرجة الثانية يحضرون شرح «التحرير» ، في فقه الشافعى أيضاً وذلك درس الشيخ «السنتريسى» ، أمامه تسعة من طلاب الدرجة الأولى يحضرون شرح «المنهج» ، في فقه الإمام الشافعى أيضاً . من هذا تعلم أن كتب الفقه الشافعى التى كان يدرسها الطلاب في درجاتهم الثلاث هى : حاشية البرماوى على ابن قاسم ، وشرح الخطيب ، للدرجة الثالثة ، ثم «التحرير» ، للدرجة الثانية ، و «المنهج» ، للدرجة الأولى . وهم يقضون في قراءة هذه الكتب نحو عشر سنوات ، وقد يعيدونها مرة أو مرتين ، فيقال إنهم يعيدون المذهب (١) .

كأنى بك تقول : أريتني دروس فقه الشافعية ، أفلا تطلعنى على بعض دروس المالكية والحنفية ؟ هناك أمام باب المكتبة ، بجانب الاسطوانة الأخيرة من الصف القبلى ، ترى

درس شيخ المالكية الشيخ « مرسى على طبل » ، وعلى ركن
الصحن الشرقى ترى درس الشيخ « على النمر » ، وبقرب باب
الرخام تجد درس الشيخ « شبل » ، والشيخ « سباعى بدر » ، وكلهم
من علماء السادة المالكية . وتجد الشيخ « على المنوفى » يقرأ
الدرس فى منزله بدرب الأثر ؛ وهو شيخ جليل وقور ، يدل
بياض وجهه ، وطول لحيته الطاهرة وكثرة إطراره ، على
استغراق فى التفكير ، وينم هدهءه فى درسه واختيار كبار
الطلاب للحضور عليه ، عن سعة فى العلم وتعمق فى البحث .
معذرة إليك إذا لم أذكر لك كتب المالكية والحنفية مع
المشايخ (١) أما الحنفية فليس أمامى الآن إلا درس الشيخ
« محمد الدفتار » وهو شيخ أنيق الملبس ، وسيم الطلعة قليلا ،
نظيف الزى مختصره ، يلبس الجبة والقفطان الثمينين الضيقين ،
ويؤثرهما على « الفراجية » ذات الأكمام الواسعة العريضة والقفطان
المتهدل والحزام الغليظ العريض المتخذ من الصوف الكشميرى .
أما حزامه فخريرى رقيق ، وأما عمامته فمنتظمة نظيفة ، فوق
« طربوش » رقيق صغير أنيق ، بخلاف عمام سائر الشيوخ ،
ففيها طيات كثيرة من منسوج غليظ غير ناصع البياض أحيانا ،
وقد يدسون فيها المشط يخللون به لحام الطويلة ، أو جيلا

(١) انظر الجدول بصفحة ١٨٨ .

لسواك يستأكون به عند الوضوء ، كما يتخذون تحتها ، عرقية ،
من الموصلی (الشاش) الاخضر .

هذا الشيخ كان يسمى نفسه شيخ الحنفية ، وهم قليل بالجامع
الاحمدی ، كما أن الشيخ مرسى على طبل ، هو شيخ المالكية
فعلا . تأمل تلاميذه تجدهم نخبة من الطلبة المترفين الذين يمتازون
عن غيرهم بشيء من أمارت الغنى واليسار ؛ ذلك لأنهم يدرسون
الفقه على المذهب الحنفى ، يريدون عرض الدنيا ، فالعلماء
الذين يرشحون للقضاء الشرعى هم من علماء الحنفية فقط
وهم بذلك يبتغون الجاه ، مع أن أبا حنيفة ، رفض القضاء
مرارا ، وعُذِبَ من أجل ذلك . أما غيرهم من الطلاب الشافعيين
والمالكيين فإنهم لا يريدون إلا وجه الله فى طلبهم العلم .

أطلت عليك القول فى درس الصباح أو الشروق ، وقد
رأيت أن كل دروس هذا ، الحصّة فى الفقه فقط أو فى الفروع ،
وأن معظم الطلاب شافعيون وأقلهم مالكيون وأقل من القليل
النادر مذهبون وليس بالجامع حنبلى واحد ! ولعلك لاحظت
أن بعض الدروس فى المكتب الصغيرة مزيج من الطلاب بحيث
ترى ابن ١٣ عاما بجانب شيخ جاوز الأربعين ، الأول طالب
مستجد ، والثانى سبقت له دراسة هذا الكتاب مرة أو مرتين .

فهو يحضر رغبة في تحصيل العلم فقط . أو ليعيد المذهب على شيخ كبير حتى يحصل سائر العلوم فيؤدي امتحان (العالمية) .

٣ — فإذا كان الوقت ضحى رأيت بالجامع دروسا لاتزيد

على عدد أصابع اليد ، فهذا درس الشيخ ، بيومي أبوريا ، وهو شيخ عالم فاضل ، جليل وقور ، كأنه جاوز الثمانين ، أوقارب التسعين ! يموج جسمه النحيل في ثيابه الواسعة ، ويبسم عن بقايا أسنان عثت بها يد الدهر ، فإذا فتح فاه رأيت أسنانه كأسنان البير أو الأسد الهندي ، بعضها طويل وبعضها قصير . هاهو ذا قد جلس على دكة عالية ، ليقرا درس « جمع الجوامع » . تأمل طلابه تجدهم شيوخا ، جاوز أكثرهم سن الأربعين ، وأولئك هم الطلاب الذين يستعدون للامتحان النهائي ،

أو امتحان « العالمية » من طلاب الدرجة الأولى

و « جمع الجوامع »^(١) ، يكاد يكون الكتاب الواحد الذي يدرس في علم « الأصول » ، « أصول الفقه » . وهذا العلم يدرسه جميع طلاب المذاهب المختلفة ، ويشبه في وضعه ما يعرف عنه الفرنجة أو علماء القانون باسم أصول القوانين أو مقدمة

القوانين : Introduction to the Study of Law .

وعلماء المعاهد الدينية يدرسون هذا العلم آخر ما يدرسون ، بعد دراسة « الفروع » ، أو علم « الفروع » ، وهو علم الفقه . وكان

(١) تأليف الشيخ عبد الوهاب السبكي المتوفى سنة ٧٧١ هـ .

الأخرى به أن يسمى « فلسفة الفقه » ، حتى لا يكون نظام دراسته مقلوباً ، فيدرس « الأصل » بعد « الفرع » ، على أن علماء القانون الذين كانوا يبدعون بدراسة « أصول القوانين » ، كانوا في حيرة ، لأن الطلبة لم يلبوا بفروع القوانين التي يضربونها أمثلة لقواعد هذه المادة عند درسيها ، وإذا أردت حصر دروس « الأصول » في الجامع كان ذلك سهلاً ميسوراً . فالكتاب في نظر الطلاب والشيخ عظيم ، ولا يتصدى لتدريسه إلا كل فحل من فحول العلماء . ولهذا لا تجد أكثر من ثلاثة شيوخ أو أربعة يجرءون على تدريسه . فالذي أذكره منهم ، بعد هذا الشيخ ، السيد محمد عبد الرحيم ، والشيخ محمد الحفناوي . دع هذا الدرس وتقدم بضع خطوات إلى الاسطوانة الثانية أمام مقام سيدي مجاهد تدرس السيد محمد عبد الرحيم ! إنه يقرأ صحيح البخاري ، لخيار طلبة الدرجة الأولى . إرجع إلى الوراء قليلاً وقف أمام هذه الحلقة المقلوبة أي التي يجلس شيخها بعكس جلسة الشيخ المدرس ! إنها ليست درسا ، وليكن هذا الطالب الكبير يطالع الدرس الجديد ، درس الغد بعد فراغ درس الشيخ اليوم . تأمل ذلك الشيخ في شرق الجامع أو غربيه ! إنه شيخ غني رقيق لم يعتد عمق التفكير في درسه ، فجلس في حلقاته ، وقد التف حوله بعض كسالى الطلاب الذين اتخذوا حضور العلم زينة فقط ، فلم يرق في نظرهم درس هذا

الشيخ ذى الجاه ، وللجاه - كان - دخل كبير فى التفاف بعض الطلبة حول أغنياء الشيوخ وذوى النفوذ منهم ، فإن لم ينتفعوا بعلمهم ، فإنهم ربما ساعدوهم فى امتحان رتبة ، أو فى أخذ جناية ، أو فى السكنى فى **مأوى** على الأقل . وأمثال هؤلاء الشيوخ معروفون بين الطلبة والعلماء ، لا يمتازون بميزة علمية ، ولا يُعرفون بالتحقيق أو التدقيق الذى يجتذب الطلاب إلى الشيوخ عادة .

دع الطلاب الآن وقد فرغوا من درس الصباح ومطالعة درس الغد ، يطالعها كبارهم لصغارهم ، يتهيئون لطعام الغداء ، ويعدون عدتهم لدرس الظهر ولينتظر أذان الظهر .

٤ - انتهى المصلون من صلاة الظهر ، وعقدت الحلقات بجانب الأساطين كلها كما كان الأمر فى درس الصباح عند شروق الشمس . وقبلها يغيب عن درس الظهر إلا عدد من طلاب **المرحلة الأولى** فليس هناك درس جمع الجوامع ولا الحديث والتفسير ، بل قد تجد غالبية الطلبة من الدرجتين الثالثة والثانية وهم يحضرون دروس النحو والصرف كما سترى .

هذا هو الشيخ ، إبراهيم عبد المتعال ، قد اعتلى أرض النافذة فى الركن الغربى الشمالى من الجامع ، وجلس يقرأ شرح الكفراوى على متن الأجرومية لنحو ٣٠٠ طالب ، وهو شيخ

ذكي فصيح ، سبقت له دراسة كثير من الكتب الكبيرة ، فأخذ يعيد قراءة الكتب الصغيرة للبتدئين ، فتكاثر عليه الطلاب ، وتسابقوا إلى درسه قبل الظهر بأكثر من ساعة ليدرك كل منهم مكانا بقرب الشيخ ليحسن استماعه له .

وإلى الأسطوانة القرية تجمد الشيخ « السباعي بدر » يدرس شرح الشيخ خالد على الأجرومية لمن سبقت له دراسة الكفراوى مرتين أو ثلاثا . وفي الإيوان المقابل شيخ غير مجاز لأنه طالب على أبواب امتحان « العالمية » هو الشيخ « على داود » جلس لتدريس الأزهرية بتحقيقه المشهور ، وتقريره الفائق ، وعلمه الواسع ، منع التواضع والانكسار ، فانصرف إليه كثير من الطلاب الراغبين في الاستفادة فكانت حلقاته أكبر من حلقات الشيوخ والعلماء المجازين أو المرخص لهم بالتدريس رسميا .

وبالقرب من المحراب تجمد الشيخ الوكيل يقرأ شرح القطر ، والشيخ على النمر يقرأ شرح الشذور . وهذه الكتب كلها يحضرها طلاب الدرجة الثالثة .

أما طلاب الدرجة الثانية فالحديثون منهم يحضرون شرح ابن عقيل على متن الألفية ، على هذا الشيخ الطويل العريض تحت الدكة وهو الشيخ « على الجرواني » . وبجوار الأسطوانة التي أمامه تجمد الشيخ « أحمد الفقي » يقرأ شرح الأشموني لمن سبقت

له دراسة ابن عقيل . وهما الكتابان المقرران في النحو والصرف
لطلاب الدرجة الثانية^(١) . أما طلاب الدرجة الاولى
فلا يحضرون كتباً في النحو والصرف . غير أنك قد ترى هناك
بجوار دكة السكف الشيخ ، احمد علوان ، يدرس القطب على
الشمسية في المنطق للطلاب المتقدمين ممن سبق لهم دراسة السلم
وإيساغوجي في المنطق^(٢) .

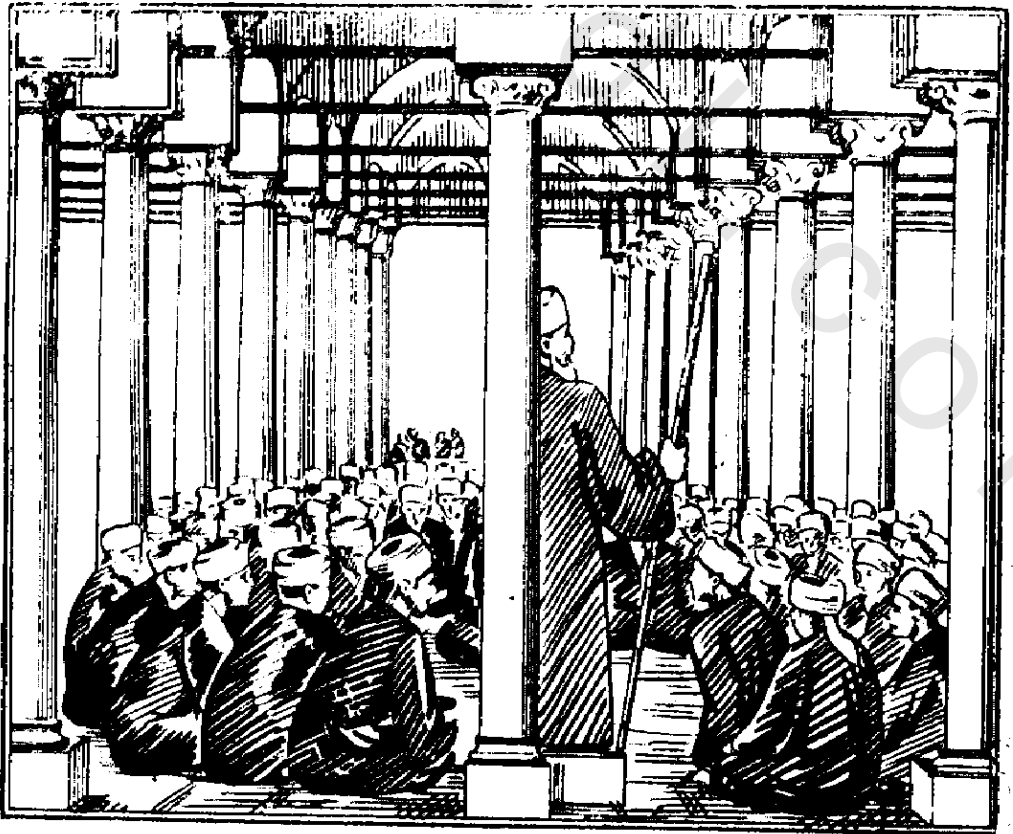
وترى في درس الظهر ما رأيته في درس الصباح ، من
تفاوت عدد الطلاب تفاوتاً غريباً . فشيخ عنده مئات من الطلبة
وآخر ليس أمامه إلا أفراد تعد على أصابع اليد !



أليس الطلاب أحراراً في اختيار الشيخ ، وفي اختيار الكتاب الذي يدرسونه ؟ ! وكذلك الشيخ حر في اختيار الكتاب الذي يدرسه حسب خطته التي وضعها لنفسه أو وضعها له قوته ومنزله ومقدرته عند الطلاب ! فقد يحضر الطالب درس الأزهرية وهو لم يتقن درس الشيخ خالد قبله ، وكذلك يدرس الشيخ فنا لم يعط القوة الكافية فيه على تفهيم طلابه . ولهذا يشاهد في ابتداء العام الدراسي تزاحم الطلاب على شيخ ، ثم ينقص عددهم تدريجاً . وبالعكس ذلك يتزايد عدد الطلاب على شيخ بدأ درسه بعدد قليل . وقد يكثر عدد الطلاب إلى حد يلجئ هذا الشيخ للجلوس على دكة عالية بعد أن كان يفترش فروته ! فوق حصير الجامع .

(٥) صليت العصر ، وانهقدت حلقات الدروس ، ولكنها أقل عدداً من الظهر ! سأترك الشيخ (الحفناوى) يقرأ درسا في (جمع الجوامع) لطلاب الدرجة الأولى بجوار باب الرخام . وكذلك الشيخ (أحمد الفقى) يدرس شرح (السعد) على تلخيص المفتاح في البلاغة بجوار باب سيدى عبد المتعال ، وغيرهما ، وأقتادك إلى درس عجيب ! أما مكانه فعند الاسطوانة المتوسطة على حافة الصحن الشرقية ، ولكنه يشغل رقعة كبيرة من الجامع تشمل ست اسطوانات متجاورة على الأقل ! قد اصطف الطلاب له وتراص بعضهم وراء بعض . وتوافدوا على مكانه قبل

وقته بساعتين . إنك لتعجب حينما ترى هذا الجمع الحاشد ، وهم يتقنالون للحصول على مجلس متقدم فيه ، وقد تكس طلبة الجامع عنده ، فكان الجامع قد خلا من الطلبة ! فليس يفر منه طالب مبتدى ولا يغيب عنه طالب قديم حضر شرح « الكفر اوى » مرتين أو ثلاثا أو أربعا ، إن لم يكن لمعلومات إضافية يتلقاها فلطريقة طريقة وأسلوب في الشرح والتدريس غير مألوف عنده . وهذا هو السر في إقبال الطلبة على درس الشيخ محمد الحبيشى ، في شرح الأجرومية ! اسمعه يفخر بأنه كان يدرس في مدارس نظامية ، وأنه كان يدخل على .. تلميذ من الأفندية « فيضربون » له سلاما وتعظيما !



انتظر ! قد حضر الشيخ بعد صلاة العصر فاعتلى دكة كبيرة .
قوية بجوار عموده ، وهاهو ذا قد وقف وأشرف على مئات
الطلبة أمامه ، وفي يده « نبتوت » عصا من خشب الشوم طولها
خمسة أذرع ، وهو يشير بها تارة ، ويتوكأ عليها أخرى ! أترى
بسطة جسمه وصحته وقوته ، وامتلاء « الفرجية » الواسعة به ؟
إن وقفته وطوله ، وحسن صوته العالي ، ونغمه الرخيم ، ورغبة
الطلاب وشوقهم لسماع مايقول ، والأمثلة الواقعية التي يذكرها ،
والحكايات الشائقة التي يدجها في درسه ، أو يدج فيها درسه ،
كل ذلك يدعو الطلاب للإصغاء فيسمعون كل كلمة يلفظها وكل
عبارة يلقيها ! هلا سمعت معارضته للعبارة « قاعدة نحوية : كل
الضائر مبنية ، فيقول هو « قاعدة حبيشية : كل الحروف مبنية ، ؟
وما أسهل حفظها والتمثيل بها كأنها أصل من أصول النحو ! سل
أى طالب عاصره ، يذكر لك كيف كان يدرس أقسام الكلمة
(الاسم والفعل والحرف) فيختار طالبا يسميه « الاسم » ، وثانياً
يدعوه « الفعل » وآخر هو « الحرف » ، ثم يوزع على كل واحد
علاماته ، ويعود فيسأل كلا منهم عن صفاته . وإذا أراد إعادة
درس التحل حكاية موضوعها : « مجاور » كان يخترق شارع
« البورصة » فقابله « أفندي » وسأله عن هذا الدرس ، مع إضافة
عبارات وصفات وعناصر يملئها روح الخرج عنده خلال حكايته :

ثم يضيف إلى ذلك أنه إذا كان الطالب ذكياً نبيها مذاكر درسه،
يبادر السائل بالإجابة ، ويقول كيت وكيت ؛ وإلا إذا كان غيباً
أو مقصراً تلكأ في الإجابة ، وأخذ يحك عنقه بأظافره
أو « يهرش في رقبته ، علامة البلادة . ولست أنسى أنه كان يتمثل
مرة هذا المجاور البليد ، فحك رقبته بأظافره ، فسال الدم من
عنقه ، لأنه كان « حاضر الدم ، فأخذ يسب « المجاور ، و « الأفتدى ،
ويشتم النحو والصرف .

٦ — أذن المؤذن ، وصليت صلاة المغرب . وأوقدت
القناديل ، وانتظمت دروس ما بين العشامين ! إن عددها قليل
جداً ، وأظهرها وأطولها درس السيد « محمد عبد الرحيم » شيخ
الغربية . إنه قد جلس إلى عموده تجاه مقام سيدي مجاهد
وبعد عمود منه ، وقد تمنظر بمنظاره النظيف ، وبدأ وجهه الوسيم
تحت عمامته الخضراء في ضوء « الفانوس » الموضوع على كرسى
عن يساره ، وعلا صوته الرخيم في وسط الحلقة الواسعة
التي كانت تضم نخبة من كبار طلاب « العالمية » . إنه يقرأ لهم
« جمع الجوامع » ، أو « التفسير » بتحقيق نوراني . ويفيض عليهم
من فيوضاته الربانية ؛ فدرسه فوق ما فيه من العلم ، درس روحاني
يصل ما بين العبد وربّه . ولا تنس أن هذا الشيخ يدرس صحيح
البخارى ضحى ، لطلبة الدرجة الأولى ، لأنه لا يتصدى لتدريسه

إلا الراسخون والمنتهون في الصلاح والتقوى . وبهذه المناسبة نذكر أن هذا الشيخ من خيار المرشدين ، وأن العلم متى اتقى بالتصوف والزهد والإرشاد ، كان ذلك خيراً على خير ، ونوراً فوق نور .

وإذا تجاوزنا بعض دروس صغيرة لعلماء أو متعلمين . أو لبعض كبار الطلاب يدرسونها لمن هم أصغر منهم — وجدنا لكبار العلماء دروساً تعقد على غير عادة قبل نهاية السنة الدراسية بشهرين أو نحوهما .

فهذا الشيخ « الجندى » قد جلس في غير مكانه المعروف ، بين المغرب والعشاء ، يدرس « السنوسية » في العقائد والتوحيد وقد حوى درسه عدداً كبيراً من الطلاب ، والتف حوله مئات من طلاب الدرجتين الثالثة والثانية . وكذلك الشيخ « أحمد الفقى » يدرس « الشنشورى » ، على متن « الرحبية » ، في الفرائض . ولكن هذا الشيخ قد اضطر للبقاء في منزله ، فبكنا نذهب إليه حتى أتم الكتاب واحتفلنا بختامه على عادة الطلبة في ختام السكتب^(١) .

هذا ولعلك لحظت في هذه الدروس كلها أن الشيخ أو المدرس يكون ثابتاً في مكانه بجوار عموده ، وعلى طلبته أن يختلفوا إليه في كل درس ، بخلاف التعليم الحديث ، فإن الطلبة أو التلاميذ يثبتون

(١) أنظر الجدول صفحة ١٨٨ .

في مكان خاص ، والشيخ أو المدرسون يختلفون إليهم في أوقات معينة محدودة .

أما الزمان فتابع لأوقات الصلوات الخمس مرتبط بها ، كما ارتبطت السنة الدراسية بالتاريخ الهجري . فالإجازات الطويلة ، في رجب وشعبان ورمضان ، والقصيرة في العيدين ، وبعض أيام المواسم الدينية .

هاتمة :

ترى في الدروس السابقة أن المواد الأساسية في الجامع الأحمدى ، كانت : الأصول . الفقه . التوحيد . التفسير والحديث النحو والصرف . المعاني . البيان البديع . المنطق . وفيها كلها كان طالب شهادة « العالمية » يمتحن عند انتهائه من الدراسة ؛ وترى في الجدول التالي توزيعها على الدرجات الثلاث . أما تلك العلوم الحديثة ، كالْحساب والهندسة ، والجبر ، والطبيعة ، وتقويم البلدان والتاريخ والفلك ، والخط والإنشاء ، فقد كان بعضها قليل الحظ من الدراسة ، أو مهملا إهمالا تاما ، وبقي الحال كذلك حتى كانت سنة ١٨٩٦ م فأخذت تتسرب إلى الأزهر والجامع الأحمدى ، وتدرس بصفة اختيارية .

جدول بين المواد الأساسية التي كانت تدرس بالجامع الأحمدي وتوزيع كتبها على الدرجات الثلاث

الدرجۃ	أصول الفقه	التأنيدي	شرح ابن قاسم حاشية البرماوى شرح الخطيب	الثالثة	الأولى
الفقه على مذاهب	المالكي	التأنيدي	الصفق على العزيزية الزرقاني شرح إمام الحسن على متن سالم الشرح الصغير	الثانية	الأولى
الحاشية	الحاشية لابن عيسى الحرشي	الحاشية	شرح العيني على الكنز ، شرح ملامسكين ، حاشية ابن السمود	الثالثة	الأولى
التوجيه	السنوسية الجوهرية	العقائد الذنسية	شرح ابن عقيل الصبيان على الاشمونى	الثانية	الأولى
التفسير والحديث	غرايى صحيح البيهقي في مصطلح الحديث	البيان	شرح الكفراوى ، شرح الشيخ خالد ، الأزهرية ، القطر ، الشذور	الثالثة	الأولى
البيان	البيان	البيان	الجوهر المكنون	الثانية	الأولى
البيان	البيان	البيان	البيان	الثالثة	الأولى

طرق الدراسة

كانت الكتب الدراسية تتكون غالبا من «المتن» ، وهو مختصر موجز مدجج ، يشمل أصول العلم ومباحثه كلها تقريبا ، ومن «الشرح» ، وهو مطول المتن ، بحيث يكونان عبارة واحدة وإن انفصل المتن عن الشرح بأقواس . وعلى الشرح قد تكون «الحاشية» ، وهي تعليقات متقطعة تكتب غالباً في «قولات» أو جمل تفسر عبارة الشارح بعد عنونها بكلمة «قوله» .

وقد يعلق على الحاشية بقولات أخرى تسمى «تقريراً» ، وقد ترى للمتن الواحد عدة شروح ، وللشرح جملة حواش ، وعلى الحاشية أكثر من تقرير .

وللمتون عندهم أهمية كبرى ، حتى إنهم ليستظرونها قبل البدء في دراستها مهما كانت طويلة ، ويقولون في ذلك : من حفظ المتون حاز الفنون . وكذلك قولهم :

فليس بعلم ما حوى القمطر العلم حقا ما حواه الصدر
وقد يسهل حفظ المتون عن ظهر القلب أحيانا نظمها كما في
«ألفية ابن مالك» ، «وجوهرة التوحيد» ، و«الرحبية» وغيرها .
وليس يبقى في ذاكرة الطالب من العلم عادة ، غير هذه المتون فهي نصيبه من التحصيل .

ومن العلماء من يدرس لطلبته المتن فقط ، إذا كانوا مبتدئين

أو هو مع الشرح ، ومنهم من يجمع بين المتن والشرح والحاشية .
وبقدر حرصهم على المتون وحفظها يزعمون أن : من تتبع الحواشي ،
ما حواشي ، أى ما حوى شيئاً .

وعلى كل من الشيخ والطلبة إعداد الدرس قبل حضوره
أو قراءته ، ويمتاز الشيخ في إعداد الدرس باطلاعه على كثير من
المراجع التى على هذا الكتاب الذى يقرؤه ، بل قد يطلع على
غيرها من الكتب التى تتصل به ، وبخاصة إذا كان هو من
الباحثين المجتهدين .

لهذا كله تكون الدراسة غالباً تفسير المتن وشرحه ،
تفسيراً يشمل لفظهما كلمة كلمة ، ومعناها إجمالاً ، ثم قراءتهما
وقراءة الحاشية مع شرح ما يعترض من العبارات أو الألفاظ
والمعاني . وإنك لتسمع الشيخ في أثناء درسه يقرر أو يشرح ،
مستعيناً بما قرأ قبل الدرس فى الحواشي والتقارير وغيرها من
مطولات الكتب المتصلة بالموضوع . وقد يشارك بعض الطلاب
الكبار ، شيوخهم فى الاطلاع على هذه الحواشي قبل حضور الدرس
فيكون لهم معهم شأن فى المناقشة والاستجواب . وقد تجد بعض
الطلاب حينما يستمع للدرس ، يكتب على هامش ، كتابه بما
سمع من الشيخ ، كما أن بعض الشيوخ يحلى حواشي كتابه بملخصات

أو تعليقات من الكتب الأخرى ، ولذلك تزداد قيمة النسخ من الكتب بما عليها من هوامش وتعليقات خطية .

وقد كان كثير من الكتب الدراسية في ذلك العهد — مخطوطاً ، وقل ما كان منها مطبوعاً بمطبعة الحجر أو المطبعة الأميرية وغيرها . وكان العلماء وكبار الطلاب يؤثرون الكتب الخطية لما يكون عليها من تعليقات للؤلفين والمستنسخين والقارئين . ويختلف الشيوخ في تدريسهم اختلافاً بينا ، فمنهم من يعتمد على عقله ، ومنهم من توجد عنده مراجع نادرة خطية ليست عند غيره . ومنهم من يستشير أو يستشير الطلاب في المناقشة ، ومنهم من يأبى على الطالب الكلام أو السؤال ، وقد يسبه ويلعن أباه ، ومنهم من كان يترك إعادة الشرح لبعض كبار الطلبة أو متوريهم ، ليكون ذلك أقرب للفهم عند ضعاف الطلبة أو صغارهم ، ومنهم من كان يوجه سؤال السائل إلى غيره من الطلاب ليجيب عليه ، وتكون الكلمة الأخيرة للشيخ .

وكذلك كان الطلبة ؛ فمنهم من يستمع ولا يتكلم ، ومنهم الثرثار ، الذي يتكلم في شرح كل عبارة أو يسأل حتى في البديهيات ، ومنهم الجاهل العبي ، ومنهم المغرور ، ومنهم من يعنى بالتضييق على الشيخ في شرحه وتقريره ؛ وإجمالاً كان الطالب نسخة من الشيخ فيكون قصير الفكر ألسن اللسان ، إذا كان الشيخ كذلك .

وكنـت ترى بعض الشيوخ يطيل في الدرس ، فيسهب في الشرح والتفسير ، محققا مدققا ، مبينا : لِمَ عبر بالواو ولم يعبر بالفاء ؟ وإن قيل كذا (اعتراضا) ، أجيب بكذا ؟ وما هو المراد من قوله كذا ؟ الخ ومن هنا نشأت عبارات اصطلاحية ، كقولهم : المراد يدفع الإيراد ، أى أن بيان المقصود من العبارة يدفع الإيراد أى يرد الاعتراض عليها بأنها تؤدي غير ما يفهم منها . ويهمنى قبل استعراض محاسن ومثالب طريقة الدراسة بالجامع ، ان أشير إلى الاحتفالات التى كان يقوم بها الطلاب عند ختام الكتب ، فيفيد الشيوخ من أصدقاء الشيخ ويجلسون في حلقة الدرس مع الطلاب ، يستمعون لآخر درس في الكتاب ويكون قصيرا عادة ؛ فإذا انتهى الشيخ من الدرس وقال : « والله أعلم ، عجّوا جميعا بالصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم بالعبارة المأثورة » اللهم صل أفضل صلاة على أسعد مخلوقاتك نور الهدى محمد صلى الله عليه وسلم الخ ، ثم تتلى بعض آى الذكر الحكيم ويسقون الشراب وتوزع الحلوى على الحاضرين والمدعوين ، وتلقى الخطب في مدح المشايخ وغير ذلك (١) .

هذا مجمل وصف لطرق الدراسة بالجامع ، وقد ترى فيها ما يأتى :

(١) راجع كتابى « مرقاة الخطابة المصرية » تر فيها نماذج من هذه الخطب .

٦ — عدم مواظبة الطلبة على الحضور ، إذ لا رقيب عليهم .

٧ — سوء الترتيب في عمل الطلبة ، فقد يهمل طالب ولا يحضر في اليوم غير درسين ، في حين ينهك آخر قواه بكثرة الدروس ، فلا يكفيه إلا خمسة دروس أو ستة في اليوم . كما أنهم قد يتزاحمون على درس شيخ ، ويتفرقون أو ينصرفون عن آخر ربما كان أنفع من الأول ، كما أن بعض الشيوخ قد يملكث في درسه أكثر من ساعتين في حين يقطع آخر درسه في أقل من ساعة ونصف ، فيعترى الطلبة الملل والسآمة في الأول على حين يتوافر نشاطهم في الدرس الثاني .

٨ — كان اختيار الشيخ موكولا إلى هوى الطلبة ، فقد يكون اختياره لقراءة في البلد ، أو لصداقة أو استظراف ، أو لحب الفخفحة ، أو لطلب المنفعة الدنيوية عند فاسدى الطلبة ، وضحايا هذه الأسباب كثير . وربما كان هناك من الشيوخ من هو أنفع منه ، على أن الطلبة قد يعتمدون في اختيارهم على ما قد يسمعون عنه ، أو على شيخ مخرج مضيع للوقت ، وينصرفون عن الشيخ المحقق المفيد .

٩ — سوء توزيع المواد في الجامع الاحمدى ، جعل شيوخه وطلابه لا يعنون بالعلوم والكتب الفلسفية كثيرا . بخلاف طلاب وعلماء الازهر الشريف ، فإنهم أسبق في هذا . ولهذا

كان الفرق ظاهرا بين منطق علماء الأزهر وعلماء الجامع
الأحمدى . وكذلك نجد شيوخ الأزهر يقرءون كثيرا من الكتب
القديمة المحترمة المعقدة .

١٠ - ومن أهم مثالب طرق الدراسة بالجامع ، عدم التحصيل ،
تحصيل المعلومات ، إلا ما حفظوه من المتون المنظومة وغير
المنظومة ، فهم لا يستظهرون إلا المتون ، وقد يسأل الشيخ
أو الطالب الكبير عن مجمل بعض القواعد فيكون جوابه «نراجع»
ويزعمون أن العلم في السطور لا في الصدور ، وقد بالغ طلبة
وتلاميذ اليوم في التحصيل ، صارفين النظر عن الفهم والبحث
والتعمق ، في فحص التراكيب واستطلاع أسرارها ، فيسكوند
مبدؤهم العلم في الصدور لا في السطور .

أغراض الدراسة

تنقسم العلوم في الدراسة الدينية إلى قسمين ، وسائل ومقاصد ؛ فالتحقيق والصرف وعلوم البلاغة والأصول والمنطق من الوسائل ، أما التفسير والحديث ، والتوحيد والفقه فهي المقاصد ؛ أى أن الغرض من دراسة الصنف الأول من العلوم التوسل بها لفهم العلوم الدينية . فتمت قسّم كتاب الله وحديث الرسول ، وألم الطالب بأحكام الدين ، كان ذلك منتهى ما يرمى إليه ، فحاز السعادة في الدارين . وكانت التربية الدينية أساس الثقافة في العصور الأولى كما كانت مقياس الكفايات لدى الخلفاء والأمراء ، بعد أن صار للإسلام دولة وملك .

ولذلك كان أول الأغراض عند طلبة العلم في أوائل القرن الرابع عشر الهجرى ، التفقه في الدين والتقرب إلى الله تعالى بالانقطاع لطلب العلم .

وكان هدف الطالب المجد المواظب على حضور الدروس ، حصوله على شهادة العالمية ؛ إذ كان حاملها وهو المشهود له بالعلم أرقى الناس ، في نظر أهل العصر من عامة الناس ، إن الأكابر يحكمون على الورى وعلى الأكابر تحكم العلماء

كان العالم في ذلك الوقت عنوان الكمال ، لعلنه بأحكام دينه
ولعلنه بما يعلم . فكان في التقرب إلى العلماء ، والاختلاط بهم ،
ومجالستهم شرف لا يعادله شرف . كان والدي (رحمه الله) يحس
بهذا ويعتقده ، وكان ندمه شديداً على أنه لم يفلح في طلب العلم ،
فصمم على أن يسير بابنائه في هذه السبيل . وكان في الناس من
يهب أولاده لطلب العلم أو للسيد البدوي مثلاً ، فلا يبيع لهم
الاقطاع عنه . ولو بالحصول على مرتب لا يحلم به الناس حينئذ .
وكنت لذلك ترى عدد الطلاب الذين يدرسون الفقه على المذهب
الحنفي قليلاً ، وهم الراغبون في تولي مناصب القضاء . كما أن بعض
الآباء كان يرى في إلحاق ابنه بمدرسة دار العلوم ، أو القضاء
الشرعي ، كارثة دينية ، لأن الاشتغال بالتدريس في المدارس
أو وظائف القضاء الشرعي ، عمل من أعمال الدنيا وليس كالأشتغال
بمدرسة كتاب الله وسنة رسوله أو دراسة مسائل الدين .

ولكن لم يكد يمضي ربع القرن المذكور حتى اتجهت أنظار
الطلبة إلى الدراسة الدنيوية ، وكادوا يبعدون عن الفكرة الدينية
باللحاق بالمدارس السابقة .

وكان من مزايا طالب العلم في ذلك الوقت إعفاء الطلاب
والمدرسين من القرعة العسكرية ، ومن بعض أعمال السخرة

التي كانت مقررة على غيرهم . وكذلك كان بعض الطلبة يتمتع ببعض الرواتب ، كالحبز الجارى (الجرابة) والسكن فى مساكن الطلبة (الخلوات) . وقراءة البخارى ، أو القراءة فى بعض المقارىء ، وشغل وظائف المأذونية ، والتوظيف فى وظائف صغيرة ، كالخطابة والإمامة فى بعض الزوايا والمساجد ونحوها .

وكان من السهل العثور على طلبة قضوا فى الجامع فوق العشرين سنة أو نحو الثلاثين ، وهم قانعون برغيفين ، قابعون بحجرة من الخلوات ، يدرسون بعض الكتب ، ويستعينون على الغربة بقروش تسد مصروفهم القليل الهين . وفى كل عام يكتبون أسماءهم فى جدول الممتحنين للعالمية وندر من حصل منهم عليها . أما من أقعده الجبن أو العجز ، أو من خانه الحظ ، أو من يش من النجاح ، فإنه إما أن يبقى كذلك بالجامع حتى يأتبه أجله ، أو يسافر إلى قريته فيجلس فى مسجدتها للتدريس والفتيا ، مكتفيا بما حصل من العلم للتنور والمعرفة فقط .

ولا يفوتنى أن أشير إلى رجل فى الجامع ، أحرى أن نسميه «فيلسوف الطلبة» أو «فيلسوف الجامع» وهو الشيخ إبراهيم ... الذى انقطع لطلب العلم مدة طويلة . وكرس حياته لحفظ متن المنهج ، فكنت تسمعه يقرأ فيه وهو يكرر الجملة مرارا ، متأتئا مفاظا ، فلا هو يحافظ شيئا ، ولا هو بتارك القراءة والتأناة

والفأفة . وقد ذكرت أنه « فيلسوف » ، لأنه كان يحيا حياة
الفلاسفة . فهو يحمل جوالقه (شواله) على ظهره ، وفيه كل
متاعه ، والله أعلم به ، وقد ربط به إبريقا وطسيتا من الصفيح .
وحمل في يده متن المنهج ذاهبا آيبا من دورة المياه إلى الجامع ،
وقد بقي من بصره شعاع ضئيل ، تراحمه الدموع المدرارة ، وكان
أمره مشهوراً ، ولست أدري كيف قضى بقية حياته ، بعد أن
هاجم نظام سنة ١٣٢٦ هـ عشه ، بمكانسه وفراجينه . وكل ما في
الامر أنه قضى حياته في طلب العلم ، منقطعا عن الدنيا . رحمه الله
وألحقنا به في جنات الخلد . إنه سميع مجيب ! آمين .

الامتحانات بالجامع

١ - أعطاني والدي قطعة بخمسة ، وطالب إلى أن أتوجه إلى العمدة لاستخراج شهادة ميلادي قبيل السفر إلى طنطا . وبعد أن سلمته خمسة القروش وهي إتاوة كانت معروفة ، كتب الشهادة التالية ، تشهد نحن الموقعين عليه أدناه عمدة ومشايخ كفر هورين مركز السنطة غربية أن الشيخ محمد بن الشيخ سيد احمد بن المرحوم محمد عبد الجواد من الناحية بلدنا ومن مواليد ٥ سبتمبر سنة ١٨٨٧ م ومن حملة القرآن الكريم . وتحررت له هذه الشهادة منا بذلك العمدة شيخ شيخ

فبراير سنة ١٨٩٩

احتفظت بهذه الشهادة ، حتى سافرنا ومكثنا بالجامع أسبوعا ، ثم كتبنا انتسابا قدمناه لشيخ الغربية ، ومعه شهادة الميلاد وهذا نصه :

فضيلتو شيخ الغربية

مقدمه لفضيلتكم محمد عبد الجواد بن الشيخ سيد أحمد ابن المرحوم محمد من كفر هورين مركز السنطة غربية وهو أني أرغب قيد اسمي ضمن طلبة الجامع الأحمدى على مذهب الإمام الشافعى وجارى حضورى شرح ابن قاسم على الشيخ ابراهيم نصار بوالكفر اوى على الشيخ محمد الحبشى لازاتم ملجأ للقاصدين ؟ محمد عبد الجواد

توجهنا إلى منزل السيد محمد عبد الرحيم شيخ الغريبة ، وكنت أنا ومقودي الشيخ « ابو الفتوح » ، وكان جريئاً لسابق اختلاطه وليكبر سنه ، فلما تقدمنا للنقيب طلبة مستجدين ، طلبوا إلى قائدى قراءة « عشر » فقرأ جملة آيات بصوت جهورى « على القاعد » أى مع التجويد والترتيل والنغم ، وبشيء من القراءات السبع ، فلما فرغ من القراءة قالوا له « فتح الله عليك ! » ، ومعنى هذا أنه ناجح ، ف قيد اسمه فى سجلات المشيخة من تاريخ سنة ١٣١٦ هـ .

جاء دورى فى الامتحان وكنت صبياً تقتحمى العين ، بخلاف زميلى فكان شيخاً معماً وفتى كبيراً ، فطلب إلى النقيب أن أقرأ من أول الربع « ومن يسلم وجهه إلى الله وهو محسن فقد استمسك بالعروة الوثقى الآيات » فى سورة لقمان ، فبدأت أقرأ الآية متعثراً ، أسقط كلمة فى كل مرة .

وهو ردنى فى كل عشرة حتى قرأت الآية أربع مرات على الوجه الآتى :

- أ - ومن يسلم إلى الله وهو محسن الخ
- ب - ومن يسلم وجهه وهو محسن الخ
- ج - ومن يسلم وجهه إلى الله . . . فقد استمسك بالعروة الوثقى .

- د - ومن يسلم وجهه إلى الله وهو محسن فقد استمسك بالعروة الوثقى .

وأخيراً استوقفني وأخبرني أنني صغير ، لأنني دون ١٤ سنة ،
ويحسن أن أنتظر سنتين ، ورد إلى أوراقي فاحتفظت بها إلى
سنة ١٣١٨ هـ حين قبِل انتسابي . لم يخبرني أحد أنني فشلت في
الامتحان ، وأن انتسابي لم يقبل يومها لعدم حفظي القرآن
ومكثت سنتين أحضر في الجامع بدون قيد اسمي ؛ ولكنني أظن أن
رفض انتسابي كان لذلك ، ولو أن سني كانت صغيرة ، ولو علم
والدي ذلك لأصابني منه ما أصابني .

هكذا كان أول امتحان بالجامع ، وهو امتحان الانتساب
أو تقييد الاسم بالسجل فيه . وهكذا على ما أظن - كان رسوبي
أو إخفاقي في أول اختبار أدبته ، على الرغم من أن والدي كان
يشجعني كثيراً بإقحامى في المجالس العامة ، ويلزمنى قراءة ربع في
مجموعات العيد في الدوار ، ويجيزنى على ذلك بنصف قرش يؤديه
أو لا يؤديه أحياناً ! وأشهد الله أنني كنت أحفظ القرآن جيداً ،
وهذه السورة خاصة ، ولكن نجاح الطالب ليس في يده !

وعلى أن أسعى وليدس على إدراك النجاح

وقد يكون في ذلك إخلاف لظن الوالد لشدة حرصه على
تربية ولده بطريق خاصة ، ولو لم تساعد المقادير ؛ ولكن ثقتي
بإيمان والدي لا تبرر هذا الاتهام عندي .

٢ - كان طلاب العلم - كحفظ القرآن - يعفون من الخدمة

العسكرية، على شريطة أن يكونوا قد قضاوا سنتين مقيدين بالجامع، وأن يؤدوا امتحانا أمام لجنة المعافاة بالمشيخة .

جاءت سنة ١٩٠٥ فتقدمت للمشيخة « بأورنيك، معافاة لطلب العلم ، ومثأت أمام اللجنة المكونة من شيخ الجامع ، ومندوب القرعة (وهو أفندى) وبعض العلماء ، فسألني الشيخ عن السكتب التي أحضرها ، وطلب الي شرح « فصل والمسح على الحفين جائز ، من متن أي شجاع ، فأخذت أشرح مستدلا بما أحفظ وأفهم من متن الألفية ، فدهش الشيخ والمندوب ، ونجحت في الامتحان وأعفيت من القرعة العسكرية . على أن المقادير لم تترك هذه المعافاة حرة، بل حاطتها بحوادث بعضها يسير وبعضها عسير، فقد ظهر أني طلبت المعافاة قبل الميعاد بسنة ، ولكن هذا لم يمنعها في سنة ١٩٠٦ غير أن أحداثا حدثت بالجامع سنة ١٩٠٩ أفسدت أو ألغت هذه المعافاه فدفعت البدل النقدي وهو عشرون جنيا مصريا ، كما سترى .

٣ - أما الصنف الثالث من الامتحان فهو « للترقية ، أي نقل الطالب من الدرجة الثالثة إلى الثانية ، وكان ذلك في شرح ابن عقيل ، وقد نجحت فيه سنة ١٣٢٢ هـ ١٩٠٤ م بعد الهروب منه كما سترى في الفصل التالي ، كذلك الترقية من الدرجة الثانية إلى الدرجة الأولى، وكان في شرح السعد على التخليص وقدمرت فيه بسلام سنة ١٣٢٥ هـ و ١٩٠٧ م . وكان امتحان الترقية

ضروريا للطلاب المواظب حتى يستطيع دخول امتحان العالمية، وهو الامتحان النهائى .

٤ — أما امتحان العالمية، فى أيامنا فقد كان شفويا فقط، ولسكنا نسمع قبل ذلك أن الطالب كان يستمر فى طلب العلم وحضور المذهب وإعادة كتبه ، « حتى إذا أنس من نفسه علما كافيا وملكه يتمكن بها من إفادة غيره ، جلس للتدريس ، حيث يجد مكانا خاليا ، وعرض نفسه على الطلبة ، فكانوا إذا وجدوه على علم التفوا حوله وقبلوا يده ، وإذا رأوا غير ذلك انصرفوا عنه ، وتلك هى شهادة العالمية التى كان العلماء يأخذونها، « تقويم الحكومة سنة ١٩٣٩ ص ٧٠

وقد خطا هذا النظام خطوة أخرى ، إذ كان الطالب الذى يريد العالمية ، يجلس فى درس يضم شتات العلماء ، ويأخذ هذا الشيخ فى التدريس للطلبة ، فيشترك الشيوخ الحاضرون فى المناقشة والمساءلة ، حتى إذا رأوا منه استعدادا وكفاية ، وكاد ينتهى من درسه ، قام إليه شيخ العلماء قائلا : « والله أعلم ، ثم سلموا عليه وهنئوه واستمر مدرسا .

ونحن الآن حوالى سنة ١٩٠٠ م كان « طالب العالمية ، يؤدى امتحانا شفويا فى الأصول والفقه والتفسير والحديث والتوحيد والنحو والصرف والمعانى والبيان والبديع والمنطق ، أمام لجنة بعد « تعيين ، أجزاء من الكتب يدرسها قبل الامتحان

بأسبوع، فيبسط أمامهما أمكنه تحصيله ، وهم يناقشونه ويراجعونه
ويسألونه في شتى العلوم ، حتى إذا وجدوا منه استعداداً وكفاية
منح « شهادة العالمية » .

وعلى الرغم من وجود ألفي طالب بالجامع ، كان عدد
المتقدمين لهذا الامتحان في كل عام قليلاً ، والناجحون فيه قلة
لا تتجاوز أصابع اليدين ، لأن أكثرية الطلبة لم يكن لديهم
ما يحملهم على الانقطاع لطلب العلم والاشتغال بالدرس . وطالما
اتهم الراسبون لجان الامتحان بأقسي التهم وأشنعها ، ولا يحمد
السوق إلا من ربح .

هـ - ولا يفوتني أن أذكر خامس امتحان أدبته بالجامع قبل
خروجه منه بأيام قلائل ، فقد جاء نظام سنة ١٣٢٦هـ - ١٩٠٨م
وسار الجامع سنة دراسية على سنة دراسية جديدة ، وأعلنت
المشيخة امتحان مسابقة يكون تحريرياً للحصول على « جراية »
كبيرة قدرها ثلاثة أرباع أقة في اليوم . فتقدمت لهذا الامتحان
مع من تقدم . ولخبرتي بالإجابات التحريرية سبقت الطلبة جميعاً
وصرفت لي « الجراية » ، أياماً ثم انتزعها من يدي المرحوم الشيخ
مصطفى الخشاب « المشد » ، يوم الفتنة كما سترى .

فرار وتكفير عنه

ليس غريبا أن يغيب طالب عن امتحانه ، وأن يؤديه في آخر العام إذا لم يؤديه أوله ! ولكن الظاهر أن كل حرص يوصل إلى الحرمان ، وأن شدته تأتي بعكس ما كان منتظرا . ووالدي يعد الأيام والشهور ، بل الساعات والدقائق ، للزمن الذي أقضيه في الجامع ، انتظارا للفراغ منه والحصول على مطلوبه ، وهو شهادة العالمية ، فتركي امتحان الدرجة الثانية اعتبر فرارا من الميدان وهربا غير شريف ، ولا بد أن تقوم الدنيا من أجله وتقعده ، ولا بد من التكفير عن هذا الجرم ! نعم هربت من امتحان لا عن قصد ، وظللت أكفر عن هذه الهفوة ثلاثا وعشرين سنة ، أدبت خلالها ثلاثين امتحانا ، آخرها امتحان ليسانس القوانين ، في كلية الحقوق بجامعة فؤاد الأول سنة ١٩٢٧ م .

قضينا نحن الرفاق الأربعة بالجامع ست سنوات ، ونحن من طلاب الدرجة الثالثة ، لا نأخذ رغيفا جازيا (جراية) ولا نسكن خلوة ، ولا يضاعف نصيبنا في الصندوق . وبعد قليل من أوائل العام الدراسي ٢١ - ١٣٢٢ هـ ١٩٠٤ م أعلنت المشيخة امتحان الترقية للدرجة الثانية ، وعلى الطالب الراغب في ذلك أن يقدم

شهادة بحضوره شرح « الشذور » ، على أحد الشيوخ ، وأن يكون
في درس « ابن عقيل » ، ثم يؤدي فيه امتحانا . نحن نحضر ابن
عقيل حقا ، وقد حضرنا الشذور من قبل ، ولكن على من ؟
هرع طلاب امتحان الدرجة الثانية إلى المشيخة ، لتقديم الشهادة
اللازمة ، وبالبحت تبين أن الشيخ الوحيد الذي قرأ شرح
الشذور في السنة الفائتة ، كان الشيخ « على النمر » ، فوقع ما لا يقل
عن نصف الف شهادة ، مع أن درسه مشهور بأن عدد طلابه لم
يكن يصل إلى العشرين !

أعددنا الأوراق اللازمة ، ومكثنا ننتظر النداء على أسمائنا
للامتحان ، لأن الطلب على حسب ترتيب السنوات ، وست
سنوات في الدرجة الثالثة غريبة حقا ، فهناك من قضوا فيها ١٥
سنة أو أكثر !

أخذ الرعب يدب في نفوس المنتظرين لما سمعوا من صعوبة
الأسئلة وكثرة شهادات الشيخ « على النمر » ، فولوا الأدبار وتركوا
الامتحان إلا قليلا منهم . أما نحن الأربعة فقد ترددنا بين الدخول
وعدمه ! وأراد الله أن تتخلل أيام الامتحان بعض أيام المواسم
فأرسل أبي إلى الحمار ، يستقدمني إلى البلد ، لقضاء الموسم هناك
على غير عادة !! انقسمنا في الرأي فبقين ، وحبَّب إلى كبير الفريق
الثاني ترك الامتحان والسفر إلى البلد ، فالحمار في انتظارى وبقى

الاثنان الآخران في انتظار الامتحان ، وركبنا الخمارة إلى البلد باسم الشيطان مجراها . ليت الرحمة لم تصل إلى قلب أبي في هذه المرة ! ليته كان قاسيا ، كما اعتاد ، في غير أوقات القسوة ، فتركني أحضر ماشيا ، أو لا أحضر كلية ، ولكن هي الأقدار تجري كما شاء مجريها ! وصلنا البلد ، وبتنا ليلة قبل الموسم وفي آخر النهار وصل الفريق الثاني يحمل من أخباره السارة ، ما كان علينا وعلى أبي خاصة كالصاعقة ! فما كدنا نغادر طنطا حتى وصل الامتحان إلى أسمائنا ، فدخل الاثنان ونجحنا ، وأخذنا يذكران سهولة الامتحان ، ويسرد الشيخ أبو الفتوح في لباقة ومرح ، ما كان بينه وبين الشيوخ من نكت واستحسان .

كان أسف أبي مزدوجا ، لأنه كان يريدني أن أدخل الامتحان ولو لم أنجح ، لكي أعتاد مواجهة العلماء في الامتحان الأكبر ، امتحان العالمية ، على أنه صرح بأنني لو دخلت الامتحان لنجحت ، لأنه يعتقد في نفسه — وإن كان يظهر لي دائما خلاف ذلك — أني أنا أعلم هؤلاء وأذكاهم ، بما أقت على هذا من أدلة ، في اجتماعات ومناسبات ومحاجات عدة .

حضر الشيخ أبو الفتوح في الصباح إلى دارنا وجلسنا نفطر ، فكان يلتهم الأكل التهاما لسروره ، وأنا أنجرعه كالسم ، لما أسمع من والدي ، عند الامتحان يكرم المرء أو يضرب بالصرمة .

عدنا إلى الجامع ، وصرف للمناجحين راتبهم من الخبز وهو
رغيفان ، وكان والدى يتشوق إلى مثل هذا لأنه أول خطوة
نحو العالمية ، انتهت العالة ، وجاءت عطلة الصيف . لا تسلكيف
قضيت عطلة الصيف في هذا العام فكان كل غروب شمس يذكرني
بالامتحان ، فأتهد ، وأقف ناظرا إلى الشمس في لونها المصفر ،
كأنما أتعجل دورة الفلك ، حتى يحى . الامتحان الثانى قبيل آخر
العام . . لم يفت أبى فرصة كان يندد بى فيها ، حتى إنه كان يخاطب
بنتى الصغيرة ويدعوها بالهرابة وهـ إياك أعنى واسمعى يا جارة ،
حتى انتهت الإجازة وعدنا إلى العالة . لم نمكث فى الجامع طويلا
حتى جاء الامتحان الثانى قبيل المساحة ، وكان سهلا يسيرا ،
فكثبت إلى والدى خطابا فى ٩ من شعبان سنة ١٣٢٢ ١٩٠٤ هـ
الساعة ٤ عربى نهارا أخبره فيه بأنه حصل امتحان للدرجة
الثانية فى هذا اليوم فأجبت أنا ومن معى ، . وإنا وإن فاتنا الخبز
الجارى (الجراية) طول العام ، فقد تلاقينا جميعا عند القبض من
الصندوق ، فقد كان نصيبنا جميعا مضاعفا لأننا صرنا من طلاب
الدرجة الثانية .

حرمان ورزق

كانت « عمالة » طويلة . عاقبني أبي فيها بحرمانى النقود .
لفرارى من الامتحان ! ماذا أعمل ؟ ! ومن أين أنفق على
ما أشتري من أدام ؟ ! نعم حملت من الزاد خبزاً وفرناً وجبناً
وغيرها ، ولكن كيف أشتري حتى الفجل والكراث ؟ !

هذه قلادة امرأتى فيها أربعون قطعة ذهبية ، معاقة بخيط رفیق
ومن السهل سقوط واحدة منها وقيمتها أكثر من نصف دينار !!
لم أعتد السرقة ، مهما اشتدت الحاجة . فعلى بركة الله أعود إلى
الجامع بشئ . يسير من النقود أدفع به الحاجة ، حتى يقضى الله
أمرأى كان مفعولاً ! قد غودنى والدى الاقتراض من إخوانى ،
لأنه لم يكن يعطينى الكفاية ، ولكن ليس فى الاستطاعة أن
أقترض ما يسد حاجتى بضعة أشهر ، فلاسلم الأمر لله !

قمت صباح يوم مبكراً ، وإذا بى أرى قطعة نصف قرش
أمام منزل الشيخ الظواهرى على الأرض ، فالتقطتها ، وشجعتنى
وجودها على التحديق فى الأرض ، فإذا بشانية وثالثة ، حتى
أكتملت سبع قطع ، أو ثلاثة قروش ونصف قرش !

الحمد لله ! يرزقنى من حيث لا أحتسب !!

خرجت يوما من باب الرخام ، وألقيت حذائي على الأرض .
خارج سياجه ، ثم هممت بارتفاعه ، فإذا بين يديه كتلة مرصوفة .
من النقود ، فالتفت عليها وأخذتها . ويظهر أنها كانت لسائل
أو سائلة اعتادت الجلوس بجانب سياج الباب ، وهي لقطة .
أراني في هذه الآونة أستحقها ، فضربت بما في باب اللقطة ،
من الأحكام عرض الحائط !

فرغت النقود من يدي ذات ليلة فذرت في الجامع ، فوقع
بصري على قرش كامل ، فحمدت الله على مصروف هذه الليلة .
وذرت ليلة أخرى على أجد الراتب فلم يصادفني ، فأعدت السكر .
ثانية وثالثة ، حتى أحسست بضرورة الذهاب إلى المراحيض ،
فقصدت إليها ووقفت أنتظر خلو واحد منها ، وإذا ببقعة بيضاء
تلمع في الأرض على ضوء القناديل الضعيف ، حركتها برجلي
فوجدتها قطعة ذات قرشين ، فقضيت حاجتي ، ثم عدت لأقضي .
حاجي من الأكل والشرب .

أعوزتني النقود يوما فلجأت إلى مقام السيد ، ووقفت أمام
باب المقصورة أعاتبه ، فر فلاح يسقط بعض النقود في صندوق
النذور ، وتأكيذا لوضعها كان يخبط فتحة الصندوق بكفه لكي
تسقط داخله تماما ، فلما رفع يده تخلف عنها نصف قرش فأخذته ،

لأن بعض أساتذتنا كان يزعم أن ما في صندوق النذور مال مباح ، يحل لمن يحصل عليه !

طالت العمالة ، وعلى الرغم من كثرة اللقطة ، أصبحت في حاجة إلى النقود بصفة منتظمة ، فماذا أفعل ؟ هذا الطالب م . زايد ، وذاك م . نصر ، يسردان كلاما عن المقابر وزائريها صباح الجمعة ، وقد اعتادا ارتيادها ! هذا رزق حلال ! وأحق ما اتخذتم عليه أجراً كتاب الله تعالى ! إنهم يحصلون في اليوم على بضعة فلوس وشيء من الفاكهة الحاضرة ، التي ليست في متناول معظم المجاورين ! وكذلك يحصلون على عدد من الرغفان ، ولست في حاجة إلى الخبز ، وهناك في المقابر من يتجر بالخبز ! فلاذهب قبل أو بعد صلاة الفجر كل يوم جمعة ، وليس عندنا عمل أو دروس في هذا الوقت ! مرحبا بهذا الرزق الجديد ، وإن كنت قد عُيرت به من بعض الأقارب الحاسدين !

ولست أدري كيف علمت والدتي ، رحمها الله أني ما كنت

أجيد هذه الصناعة ، وأن أصحابها كانوا يمتازون بالأصوات العالية ، والختامات الممتازة المختارة !

انتهت العمالة على هذه الحال ، وخُتِمت السنة على ما رأيت بنجاحنا في الامتحان ، وإن فاتتنا الجراية ، طول العام ، ولكن قبضنا حقنا في الصندوق مضاعفا ، درجة ثانية ، وكان رواج

في النقد ، فليس على قروض تذكر ، وادخرت بما معي ثمن
طربوش للعمامة ، اشتريته كما كان يفعل غيرى من المجاورين ،
أقيم البرهان لوالدى على ما أصبت من نجاح وغنى ، ولكن
والدى عنفى على شراء هذا الصنف الرخيص الذى لم أعتد لبسه ،
بخلاف ما كان يشتريه هو لى ، فبعته نسيئة لصديق الناجح الثانى .
جاء العام الثانى ، وقيدت أسماؤنا على « جراية » بعض
الأوقاف ، وأخذنا كل يوم وكل أسبوع وكل شهر نسأل عنها ،
فلم تصرف لنا ، لأن المشيخة كانت تقاضى أصحاب الوقف الذى
تتبعه هذه « الجراية » ، ! وبعد سنتين من الانتظار أراد الله أن
يحظى أبى بعدة رغفان منها مع شيء من حلوى الطحينة ، وهى
أحب شيء إليه - كان - وأمر طالما تمناة !

لم تطل مدتى فى الدرجة الثانية ، فدخلت امتحان الدرجة
الأولى مختاراً ، وسبقت كل الرفاق ، وأضفت إلى ذلك أن
دخلت امتحان مسابقة « تحريريا » بعد النظام للحصول على
« جراية » فخمة مقدارها ثلاثة أرباع الأقة يوميا ، وهى ضعف
الأولى فى المقدار ، ولكن لم أتمتع بها إلا قليلا (كما سبق القول
فى صفحة ٢٠٤) . انقض على جندى المشيخة وانتزعها من بين يدي
عنوة ، واقتادنى للإدارة فى المشيخة ، حيث علاصوت الفتنة فى
الجامع على ما سأحدثك به بعد قليل !

الشيخ أحمد علي الشرقاوي

(توفي رحمه الله في يونيو سنة ١٩٣٨)

عنوان لباب ، جدير بأن يكون عنوانا لكتاب ، ولكن
شيء خير من لا شيء .



قائد النهضة العلمية المدنية الحديثة بهورين (غربية)

وما جاورها من القرى

رحلنا صيفا إلى هورين مرة ثانية ، ويممنا مسجد « سيدى حسين المغربى » وهو مسجد من المساجد الكبيرة بالقرى ، وأكبر مسجد فى هورين . وضريح ولىه أخم الأضرحة الكثيرة المنتثرة فيها ، ويقال إن بها أربعين ولياً ، بعضهم له مسجد ، وكثير فى المقابر القديمة ، وآخر داخل البلد أو خارجها . ويظهر أن هورين كانت محطه رحال كثير من هؤلاء الأولياء ، ومن بينهم سيدى « حموده » المغربى ، وأذكر أن جدتى رحمها الله كانت تستغيت به فى الملمات ، وأنه كان له « رزقة » ورثنا منها نصيبا بعنايه الآخرين ، ولكن لم أشغل ، لاتبقيق نسبتنا إليه ، ولا بمكان هذه الرزقة .

وجدنا مسجد سيدى حسين ^(١) سنة ١٩٠٣ معهداً للدراسة العربية ، يجلس فيه الطلاب لحفظ بعض المتون ، وحضور بعض الدروس وكان المدرس الأول فيه ، بل قل مديره ، هو المرحوم الشيخ « احمد الشرقاوى » . هذا الاسم رمز النهضة العلمية فى هورين ، هو باعثها ومحييها ، وهو موجهها الاتجاه الحديث الذى اتجهته فى الثلث الأول من القرن العشرين . نعم كان بالقرية

(١) سيدى حسين المغربى أحد الأشراف الحسينيين الذين نزحوا الى هورين فى زمن الظاهر بيبرس . وذريته الشرقاء تعرف باسمهم الحطة التى بها المسجد وقد جدد بناؤه سنة ١٢٨٣ هـ ويحفظ له الناس تاريخاً بالجل « رشرش فرج » محمد سليمان صالح .

ثلاثة من خريجي دار العلوم ، وهم المرحومون المشايخ ، محمود
ضيف بك ، و ، اسماعيل خليل ، و ، عبد الله خليل ، ولسكن
الأولين لم يقيما بها ، وكذلك كان هناك شيخ من كبار العلماء
بالأزهر ، هو المغفوق له الشيخ محمد ماضي الرخاوى ، وكان من
خيار العلماء الصالحين ، ومن أسرة كريمة ، وكان لوالدى به صلة
متينة من يوم كان مجاوراً بالأزهر ، وظلت مدة طويلة ، كان
من مظاهرها زيارتنا كل صيف ، وقد توثقت هذه الصلة لما
تقدمت فى طلب العلم .

لم يكن هذا الشيخ يهتم إلا بالنأحية الدينية من التعليم ، لأنه
مدرس بالأزهر ، وكان علماء الأزهر وطلابه يعتقدون فى مثل
طلبة دارالعلوم ومدرسة القضاء الشرعى بعد ذلك ، وفى المشتغلين
بالعلوم الحديثة عامة — اعتقاداً سيئاً ، وينسبون الإلحاد إلى
طلبة دارالعلوم خاصة .

وكان على الضد من ذلك الشيخ ، أحمد الشرقاوى ، لأنه كان
ذكياً ، وعلى جانب من العلم عظيم ، ولكنه لم يحظ بنيل الشهادة
الرسمية « شهادة العالمية » ، وكان بين الشيخين منافرة ومنافسة
مستورة ، كما بين مادنى العلوم الدينية والعلوم الحديثة ، أو كالتى
بين طالب أزهرى وآخر من دارالعلوم . ويعزون بعض أسباب
هذه المنافسة إلى مكان الاسرتين ، وإلى ما يزعمون من عدم

مساعدة الشيخ الرخاوى للشيخ الشرقاوى فى الحصول على شهادة العالمية ، . بل قد يذهبون إلى أبعد من ذلك ، إلى أنه كان يقف فى طريق نجاحه ، حتى تولدت البغضاء بين الاثنين ، واتسعت الهوة بين الشيخين ، وبعدت الشقة بين المذهبين .

لهذا عمد الشيخ الشرقاوى ، وقد يئس من حصوله على شهادة العالمية ، إلى سلوك طريق فى التعليم خاصة ، غير الطريق التى كان يسلكها العلماء فى الأزهرين . قال الكتاب الذى يقرءونه فى سنة طويلة ، يتمه فى شهرين ، تاركاً التحكات اللفظية إلى جوهر المعنى . ولب الموضوع ؛ فيلخص الدرس ، ويقرر المتن بلا كلفة ولا مشقة ، ثم يعود فيقرأ الشرح مع التعليق على ما يراه فى حاجة إليه ، وإجمالاً كان يسهل ويسر سبيل العلم إلى المشتغلين بتحصيله .

وقد توافد الطلاب من القرى حول هورين ، فكثرت عددهم فى الجامع ، واكتفى الشيخ بالتدريس لكبار الطلبة ، وعهد إلى بعض هؤلاء الطلاب النابهين بدراسة كتب صغيرة لصغار الطلبة والمستجدين ، وبهذه الطريقة أسس معهداً صيفياً كان على رأسه يدير دفته ، وكل من فيه متطوعون . فشطت الحركة العلمية نشاطاً كبيراً فى هذه القرية ، والقرى حولها من د كفر هورين ، و د كفر عليم ، و د حنون ، و د كفر أكلاب ، حتى وفد إليه من طنطا أحد كبار الموظفين الآن (الأستاذ أحمد خلف الله .

المراقب المساعد لمنطقة غرب الدلتا) وبعض أقارب الشيخ من
مديرية الشرقية ، فكان مسجد سيدى حسين عامرا فى كل صيف
كما حسن معهد دينى على رسمى .



المرحوم الشيخ أحمد الشرقاوى مع هيئة الطلبة الجوادية

فى صيف سنة ١٩٣٦ قام أعضاء « هيئة الطلبة الجوادية » برحلة لهم إلى
هورين لزيارة الشيخ عقب شفائه . وقد أخذت لهم هذه الصورة قبيل الغروب
وهم بملابس الاجزة فى الريف .

ومجرد ذكر اسم الشيخ الشرقاوى يدعو للإطراق والتفكير
فى ضروب تشجيع المتعلمين فى قريته ، وإن كانت الصلة بين ذلك
وبين موضوعى قد ترى بعيدة ! لم يكتف الشيخ الشرقاوى
بشغل الطلاب فى الصيف ، بل شجع كثيرا منهم على اللحاق
بمدرستى دار العلوم والقضاة الشرعى ، والضعاف منهم بمدارس

المعلمين الأولية في أنحاء القطر المختلفة ، وبذلك انتشرت الثقافات الحديثة ، وفتح أبواب الرزق في وجوههم . ولم يقتصر على هذا ، بل كان يذهب إلى كل والدة تضع ذكرا في بلده ، فيعاهدها على أن تهب ابنها للعلم ، وكان يساعد الفقراء والمحتاجين منهم في رحلته إلى الأزهر أو إلى المدارس ، حتى إنه كان يتخذ بمصر سكونا له وللطلاب معه ، يكون في ربيع ، أو في منزل من منازل الممالك ذات الردهات الواسعة ، وينظم في هذا المسكن إدارة لمعيشة الطلاب ودراساتهم وامتحاناتهم ونومهم ، إدارة دقيقة كأنها مدرسة داخلية غاية في النظام .

كان من أثر هذه الرحلة أن تغيرت طريق دراستي ، وازداد ميلی للعلوم الحديثة ، ثم دخولي دار العلوم عن غير قصد ، وعلى غير رغبة من والدي ، رغم تمسكه بأن أحصل على شهادة العالمية ، حتى أعوض ما فقدته هو في حياته من اتمام دراسته بالأزهر . كان الشيخ الشرقاوي شديد الرغبة في اتجاهي نحو دار العلوم ، وكان والدي شديد الإباء لذلك ، بحجة أنه لا يريد من العلم غير طريق الله ، وأنه لم يرض بحضوري الفقه على المذهب الحنفي لئلا تكون هناك شائبة في أنه يميل لأن أكون قاضيا ، فما بال دار العلوم وهي بعيدة كل البعد عن العلوم الدينية والتعليم الديني ؟ !

طالما قامت معارك بين الشيخ وإخواني من طلاب دار العلوم من ناحية ، ووالدي من ناحية أخرى ، فهم يحتاجونه في الخسارة التي تلحقني من بقائي بين علماء الأزهر ، الذين لم يلبوا بما كنت أحصله من تلك العلوم الحديثة ! وكانت تزيد حسرتهم ويشتد أسفهم عندما يطلعون على ما أنشأته من مقالات ومقالات



بعد عشرين سنة (اغسطس ١٩٢٨)

وهو يأتي أن يراني أمشي بجذائي على الحصار ، كما يفعل طلبة دار العلوم ؛ ولكن أراد الله ولاراد لقضائه أن ألحق بدار العلوم بعد طردى من الجامع الأحمدى على الوجه الذى ستراه بعد ، وأن يراني أدوس بجذائي أفخم البسط العجمية والقبعة على رأسى مكان العامة . (١٩٢٨ م)

مأذون

كان والدى رحمه الله مأذون الشرع الشريف بقريتنا ، وقد ورث المأذونية عن أبيه عن جده ، الذى كان نائب الشرع الشريف بكفر هورين غربية .

اختلف أبى وقاضى المركز على مسألة دعت لاستقالته ، والذى سمعته من والدى أنه استقال على إثر خلاف بينه وبين القاضى أدى إلى قول والدى له : إذا أردت أن تطاع ، فمر بما يستطيع ! أما تفصيل الموضوع فيظهر أن والدى تسرع فى اعذار شخص بالحضور إلى المحكمة على الطريقة المألوفة إذ ذاك . فكان الإعذار لحضور جلسات المحاكم الشرعية على يد المأذون ، وكان فى ثلاث صور ، يذهب المأذون لمنزل المَعذر ثلاثة أيام ، ويقف بيابه يناديه بما معناه : يا فلان ابن فلان ابن فلان ! عليك التوجه لمجلس القاضى فى الساعة كذا من يوم كذا لسماع الحكم عليك فى قضية كذا ، وإن لم تحضر يوكل القاضى من ينوب عنك فى سماع الدعوى !

والظاهر أن والدى أرسل الإعلانات قبل الميعاد ، فاختلف هو والقاضى واستقال .

كنت أنا فى ذلك الحين قضيت بالجامع ست سنوات ،

وأصبحت من أهل العلم ، ولا مانع من أن أكون بدل والدى
مأذونا ، والقرية مصممة على هذا ، وإن أباه أبى
غير أنه اضطر للنزول على إرادتهم وقدم لى طلبا ، وتقرر
امتحانى لذلك .

كان الامتحان سهلا ، والنتيجة مضمونة ، ما دام هناك
جنihan ذهبيان ! فامتحنت مع آخر من قرية أحد الأعيان الذى
شفع له فى النجاح ، فنجحنا وتسلمنا دفاتر المأذونية ، وعدت للبلاد
متأبطا هذه الدفاتر ، مأذونا بعقد الزواج وإثبات الطلاق . لم
يكن لى من المأذونية - فى الواقع - غير خاتم يهر به والدى
الوثائق التى خلا معظمها حتى من توقيع الشهود ، وكانت موضع
ملاحظة عند تسليم بعض الدفاتر للحكمة .

والله يعلم أنى لم أجلس لعقد عقد مدة السنوات الأربع
(١٩٠٥ - ١٩٠٩) التى قضيتها فيها غير مرتين انتهت إحداهما
بفض المجتمع بعد الفشل فى الزواج ، الذى أقيمت له حفلة عظيمة ،
ولو تم لئالى منه زوج من الجنيات ؛ أما الثانية فكان والدى
غائبا ، ودعيت لزواج بنت فقيرة ، وحاولوا أن يعطونى ريبالا ،
ولكننى رفضته بإباء ، لما تلقيته عمليا عن والدى فى أثناء عمله ،
من شهامته وعدم الطمع فى مال المحتاجين ؛ فعقدت العقد وحملت
العروس إلى زوجها فى القرية المجاورة .

قُبلت طالبا في دار العلوم سنة ١٩٠٩ وكان عليّ أن أستقبل ،
فلأحمل دفاتري إلى المحكمة ولأذهب ماشيا على القدم إلى المركز
— وبينه وبين قرينتنا نحو ٨ أميال — لتسليمها . وعلىّ أن أقابل
حضرة القاضي (وهو غير الذي امتحنتي) للمرة الثانية ، لأقدم
له الاستقالة بنفسى ، وكانت دهشته عظيمة ، حينما علم بدخولى
دار العلوم . ودعالي بخير ! ولعلك في شوق إلى معرفة سبب
المقابلة في المرة الأولى ! كنت أمامه في تحقيق لاستجوابى عن
امرأة مطلقة رُدت إلى زوجها ، فاحتفظت بقسيمة الطلاق الأول ،
ولم يُعلم عليها والدى بالزواج الثانى أو الرجعة ، فذهبت إلى
القاهرة وتزوجت بهذه القسيمة زواجا ثانيا ، فصارت زوجا
لزوجين ، ولم تستطع نظارة الحقانية التصرف فيها ، غير أنه
أصابنى منها د الوقف ، عن العمل شهرا ، بعد أن تبين القاضى
حسن نيتى ، فحاول تخفيف جزائى إلى هذا الحد الصغير . كان
وداع القاضى مؤثرا ، وقد احتفظت له بجميله فى القضية الأولى ،
كما شكرت له حفاوته وتمنياته فى الموقف الأخير !

تجارة

سيعجب القارىء من هذا العنوان ، إذ لاصلة له ظاهرة بالجامع الاحمدى ، وليكنها إجازة طويلة ، منها شهر رمضان ، وقد خشي والدى أن أقضيها لأعيا أو لاهيا ، فأعود للجامع بعدها وقد نسيت ما حفظت وجهات ما تعلمت ؛ فاخترع لى عملا يجمع بين الدنيا والآخرة ، وبين الرياضة والجد ، وبين دراسة دينية وأخرى دنيوية .

كان للأسرة عادة فى رمضان ، أن تحتزن من طعامها ما تدعو إليه التوسعة المألوفة ، إذ يرتفع مقرر الأرض والبطاطس فى هذا الشهر ، كما يضاف إليه أصناف من القطاني كاللوبيا والفاصوليا ، والسحور يستدعى شيئا من الزيتون والحلوى .

كل ذلك حمل والدى على أن يعطينى جنهين انجليزيين ذهباً قبيل رمضان سنة ١٣٢٥ هـ أكتوبر سنة ١٩٠٧ لأشترى منهما جوالق وشوالا ، من الأرض وشيئا من الحلوى والزيتون والقطاني ، فأمد المنزل بما يحتاج إليه وأشتغل بالتجارة فى الباقي .

أعد لى منظره أو مندره أنخذها حانوتا ، وكانت بجوار الباب ، ولها عدة نوافذ ، وبها دكة خشبية طويلة ، كان عليها مجلسى بجانب إحدى النوافذ .

اشتريت مع السلع ميزاناً وصنجاً ، ومكيالاً متوسطاً ، هو
ربع الكيلة أو « ملوة » .

كنت أجلس طول النهار في حانوتي لإجابة طلب المشترين ،
وكان ضرورياً أن أشتغل بجانب ذلك بالقراءة والحفظ ، إذ أن
عدد المترددين على هذا الحانوت قليل ، والفترات بين الصفقة
والصفقة طويلة ، فالعملاء أو « الزبائن » هم أهل الحارة ، ومن
تطايروا إليهم الخبز من الحارات الأخرى ، أو ممن سمعوا عن
جودة بضاعتي ، أو وفاء السكيل والميزان عندي . وكان من أهم
العملاء من استنفدت معاملته النسيئية سائر الحوانيت في البلد ،
فتحين الفرصة لفتح حساب جار عند هذا التاجر الحديث ، الذي
خرج على قاعدة « ربنا يكفيننا شر تاجر جديد » ولم يعمل
بالنصيحة المعروفة « شكك تجبر » طالب تخاق . أما البضاعة
فكانت من أجود الأصناف وأرقاها ، فالحلوى أو الخلاوة
الطاجينية الشامية البيضاء التي لم يألها الفلاحون في الأسواق التي
يرتادونها ، كانت خير تفككة لمن ملك نصف قرش أو ربعه ،
وكذلك الزيتون الذي لاهده لهم به ، وحلوى كرم الله (السكرامل)
التي لم يستوردها تاجر غيري في القرية ، كل ذلك كان خير إعلان
(ركلام) لي ولتجارتني ! وأما موازيني ومكيالي فنهايك بها من
موازين ومكاييل وافية ، فصنجة ربع الرطل كانت فوق أربع

أوقيات ، وصنجة ثلث الرطل تقرب من نصفه ، والأوقية تقرب من أوقيتين ، والملوة ، فاقت المكيال ، العباسي ، الوافي الذي ظهر في ذلك الحين ! هذا الايفاء في السكيل عند البيع ، وهذه الزيادة في الميزان ، زادت عدد المشتريين مني ، فأتسعت حركة البيع والشراء ، زيادة حملتني على ملازمة الدكان .

وكانت النتيجة المادية للتجارة — فوق تفكّهة أهل الدار — ربح نصف دينار ، كان نسيئة عند بعض الصباغين ، حصله والدي أخيراً ، والنتيجة العملية والأدبية قراءة طول الوقت وأنا مترجع على الدكة أمام الميزان بجانب النافذة ، ونقل بعض المستون وحفظها ، وتحصيل شيء ليس باليسير من العلم .

مجاور فاسد

أريدك بهذا العنوان على أن تفهم أن حياة « المجاور » ،
المجاور بالمعنى الدقيق ، أو المعنى الذى تنطبق عليه أو ينطبق هو
عليها فى ذلك الوقت — كانت حياة تدين وتعفف ، وحياة انقطاع
إلا عن الدين ودراسته ، حياة تكاد تحرم على الطالب أن يدرس
غير الفقه والنحو والتفسير والحديث ، والبلاغة والأصول ،
وما أشبهها ، من العلوم التى توصل إلى فهم أسرار كتاب الله وسنة
رسوله ، ومعرفة أصول الدين وفروعه . فلا يليق بالطالب أن
يضيع وقته فى دراسة الحساب ، ولا أن يتعلم الجغرافيا فيدرس
أن الأرض كروية ، ولا أن يتعلم الإنشاء لأنه صناعة الصحفيين ،
ولا أن يحسن خطه لأن هذا من عمل « السكتة العموميين » !
فعراك فى سبيل الحياة العملية ، أو فى سبيل التحرر من قيود
التربية الدينية البحتة ، والإلمام بطرف من علوم الدنيا — كان
يُبعد خروجاً أو انحرافاً عن طلب العلم . ولكن هناك أرواحاً
ظلمأى متعطشة إلى معرفة شيء من العلوم الحية ، أو علوم الحياة
والمعيشة ، هناك عقل لم يكفه أن يدرس أقسام الماء من مطهر
وطاهر ومستعمل ، ولا أن يعرف كيف يصل على الميت ،

ولا أن يلم بالحدود (العقوبات) وهو لم يول أمر القضاء على من انحرف أو خرج عن جادة الشرع الشريف !
هذا العقل المسكين حائر ، يرى من الخسارة أن يقصر حياته على قراءة أحكام لا عمل بكثير منها ، وتضييق نفسه أن تضيع ساعة في شجار بين الواو والفاء ، وأفضلية التعبير بإحداها بدل الأخرى ، وإجمالا يريد بصاحبه أن يكون رجلا صالحا للحياة ، ملأ بطرف من العلوم الحديثة ، كالحساب والخط والإنشاء ، والجغرافيا والتاريخ ، بجانب علومه الدينية .

١ — سمع أن رجلا يتبرع بكتابة صورة الفدان ، في قطع من الورق الرقيق الرديء ، ليوزعها على الطلبة في الجامع ، فهرع إليه ليتناول نسخة منها ، وأخذ يكررها ليحفظها : دائق ، حبة ، نصف قيراط ، إلى آخر تلك الأسطر التي لا أستطيع ترديدتها الآن ، والتي ترى صورتها في الصفحة الآتية .

٢ — رأى أن من بين العلوم الحديثة التي تقرر تدريسها بالأزهر في سنة ١٨٩٦ م علمين تسلا إلى الجامع الأحمدى ، وهما الحساب والخط ، أعدت المشيخة للحساب درسين أحدهما بزاوية القصبي والثاني بمسجد البهى عصرا ، في أيام من الأسبوع خاصة ؛ ولست أدري السر في تخصيص هذين المكانين البعيدين بالتدريس ؟! ربما كان ذلك لأن درسهما عورة ، وكل عورة

المعروف بالبسط ، والتوجه بها إلى الخلوات أو الخلاوى ، حيث يجلس المرصني افندى ومن معه ، ليعلموا أو يعلموا على ما كتبه الطالب بعد عرضه عليهم في سكون وأدب .

ذهب هذا الطالب إلى أحد درسي الحساب ، فوجد المدرس المتأخر يدرس في موضوعات وجدها في كتاب « الدرر البهية في الأصول الحسابية » للرحوم محمد ادريس بك ، يشرح العمليات أحسن شرح ، ويجيد تفهيمها أكثر من هذا المدرس ، فأخذ يطالعه ويفهم مافيه ، لأنه اعتاد ، بدراسته الاستقلالية ، استخراج دقائق الكتب بنفسه ، فأصبح في غير حاجة لمثل هذا الدرس .

أما الخط فقد جعل يتردد على درس الخط ، وهناك عرف أستاذا خطا طاكاً « أخا » له في الحضرة الشاذلية ، ووجد منه معلما خيرا من « المرصني افندى » الذي لم يدر إلى الآن السر في مطاردته له ، ومعاملته معاملة خشنة ، عفا الله عنه ورحمه . لم تمنع الطالب هذه الإهانات المتكررة ، من الجلوس في طريقة « الخلاوى » مع الجالسين ، الذين يشعر صرير أقلامهم بهدوء الدرس ، ومنتهى السكون فيه .

٣ — لم يكتف بهذا الحظ من تلك الدراسة الحديثة ، ورأى للدروس الخصوصية بالمدرسة الابتدائية بعد ظهر الخميس وقبل

ظهر الجمعة من كل أسبوع ، وهما من أوقات فراغه الأسبوعي فأحب أن يندمج في سلك من يحضرونها ! أغرته الكراسات « الأميرية » المسطرة وعليها اسم « نظارة المعارف العمومية » كما أخذ بلبه شكل تلك الكتب الأميرية من « النفحات العباسية » و « الفوائد الفكرية » و « التهجي والمطالعة » ونحوها من الكتب المطبوعة بالمطبعة الأميرية ، في ورق جيد وفي جرم أصغر وألطف من الكتب الضخمة التي لا يستطيع حملها إلا كراسات أو ملازم ، متفرقة !! ولكن كيف يحضر هذه الدروس ، وهي للفقهاء والعرفاء بالكتائب ، لالطلبة العلم من المجاورين ؟ ! كيف يكون فقيها أو عريفا وهو ليس من معلمي الصديان ؟ ! لا عجب ! هذا أمر لا يصعب عليه ، كما اعتاد أن ليس شيء مستحيلا ، والحاجة تفتق الحيلة ! نعم الأمر يسير هين : الشيخ مصطفى الجندى أستاذ الصباح مسافر إلى الحجاز لأداء فريضة الحج ، وقد أصبح وقت درسه خاليا ، ويثقل على طلبة هذا الشيخ أن يحضروا درس غيره في غيابه . وهي فرصة لأن يشتغل في كتاب « النجاح الأهل » ، بكفرة « على أغا » في هذا الوقت وفي أوقات فراغه ، عريفا ، مع صديقه « أخينا » الفقيه الشيخ « أمين غنيم » الذي تصادق وإياه في حضرة الإخوان الشاذلية !

وقد وصل إلى غرضه ، فلحق بهذه الدروس وصار يحضرها

في المدرسة الأميرية من فبراير سنة ١٩٠٦ م. قُبل طالبا بالفصل السادس مع المستجدين من الفقهاء والعرفاء الذين يحضرون هذه الدروس ، وبعد اختبار خاص بهم وثب إلى الفصل الثالث، وهو أقصى ما يمكن عمله رسميا. ولكن قضى عليه حظه السيء وتفكيره بأن يمتحن آخر العام الدراسي في امتحان الفقهاء والعرفاء، العام فتقدم إلى الامتحان من المنزل ، لأنه لا يقبل به عن طريق المدرسة الا طلبة الفصلين الأول والثاني فقط ؛ ومع هذا نجح في الامتحان فحصل على شهادة فقيه في صيف سنة ١٩٠٦ م وبذلك قطعت صلته بهذه الدروس على ألم ومضض . وليس ينسى ما شمله من السرور يوم دخل المدرسة في فبراير ومقدار هذا الشرف الذي ناله بانتظامه في دروسها ، وما صحبه وغطى عليه من ألم لمواجهة المرصفي افندي ، في حصة الخط بالفصل السادس حين قال له : (أنت هنا أيضا !!) ولكن الألم لم يطل ، والله الحمد ، لانتقاله إلى الفصل الثالث الذي لا يدرس فيه هذا (المرصفي) .

كان هذا المسكين قبل قيد اسمه بالمدرسة مع الفقهاء والعرفاء يقف كثيرا أمام باب المدرسة الابتدائية ، ويتخيل هذه الدروس المنتظمة ، التي يدق الناقوس لابتدائها وانتهائها ، فيصطف التلاميذ في الفناء عند الدخول والخروج منها ؛ ويرى صفوف التلاميذ الأربعةائة ، وهم سكوت لا يسمع فوق رؤوسهم إلا شقشقة

العصافير فوق شجرة وسط الفناء ؛ ويرى في «عم ادريس» بواب المدرسة شخصا كأنه «رضوان» الجنة ! هذا اللطيم أمام المدارس وأمام «المرصفي» أخذ يتصيد حرفا من الخط، ورقما من الحساب وجانباً من قواعد الكتابة أو الإملاء ، ويصطنع شيئا من الإنشاء فيقتنى كتاب «جواهر الأدب» ، يأخذ من والده نسخة «مقامات الحريري» ، يقرأ فيها ويحفظ شيئا من شعرها وألغازها ولم يكتب بدراسة شرح «السعد» عصرا بعد إتمام شرح «الاشموني» ظهرا ! هذا اللطيم لم تعفه الأيام وحرص والده على إتمام دراسته الدينية ، على ما كان يلاقى في تنقله وتحطف معلوماته في هذه الفنون المختلفة — لم تعفه من حضور والده بعد انتهاء درس العصر وشكواهم إلى الشيخ الذي لم يقتنع بتقريره وتوبيخه على تفريطه بتعلم أمثال هذه العلوم ؛ بل هم بضربه وإيذائه ، أمام إخوانه ، وإن لم يفقه أن يمدحه إلى أبيه ، وأن يذكر له أنه عاقل وذكي ، وأنه قال خطبة بليغة عند ختام كتاب «الاشموني» ، وكفاه بذلك فخرا ! اشتغل هذا الطالب بالحساب ، واشترى كتباً فيه ، حتى كوّن مجموعة من المسائل ، تربو على أربعائة مسألة صعبة ، أخذ معظمها من كتاب كان يدعى «الفهميات» ، أسهل كتاب في علم الحساب ، فحلها بعقله وألفها كتاباً يدعى «المظاهر الربانية في حل المسائل الحسابية» ، ولعلك تلاحظ أن عبارة الاسم فيض من فيوض الحضرة الشاذلية. وقد عرض هذا

الكتاب للطبع على يد أحد الكتبية فرفض لصعوبة مسأله .
وهذا غير كتاب آخر دعاه « حسن المقال في حساب الأطفال » ،
أوحت إليه فكرة تأليفه « النفحات العباسية في المبادئ الحسابية » ،
وقد اشترك معه في هذا الكتاب الثانى تلميذ بالمدراس ، واختلس
أصوله ؛ أما الأول فلا تزال أصوله محفوظة « بالمكتبة الجوادية » .
أما الإنشاء فقد أخذ يكتب فى الموضوعات الواردة فى كتاب
« جواهر الأدب » ، ثم سرت إليه العدوى من « مقامات الحريرى » ،
فكتب مقامات فى مناسبات شتى ، على نمط مقامات الحريرى ،
ولا يزال محتفظاً ببعضها فى كراسة المنشئات . ولما كان يرتاد
« نادى الشيبية المصرية » ، بطنطا ويحضر بعض حفلاتها ، فقد
تسربت إلى نفسه فكرة الخطابة ، وقام فيها خطيباً ذات ليلة
مندداً على هذه الجمعية ، لأنها دعتة لافتتاح الحفلة بتلاوة بعض
آى الذكر الحكيم ! وكان من أثر حضوره حفلات هذه الجمعية ،
أن أسس فى قريته ، كفر هورين ، جمعية على غرارها ، أسماها
« الجمعية الأدبية الجوهريّة » ، سنة ١٩٠٨ م . والجوهريّة نسبة
إلى أسرة « جوهري » ، خال أمى . حضر بعض أبنائها إلى القرية
ضيوفاً وهم تلاميذ ، فأنشئت الجمعية تحمل لقبهم . وكان يعقد
احتفالات لهذه الجمعية برأسته ، تدوم الخطابة فيها أحياناً نحو
أربع ساعات ، يدعى إليها أعيان ومتعلمو القرى المجاورة .

وقد أراد الله أن يوفى هذا الدين ، أو ترد هذه التسمية
فأسس بعض الطلاب بالقرية جمعية أسماها «هيئة الطلبة الجوادية»
سنة ١٩٢٥ م كان لها أثر في نهضة القرية زمنا طويلا ، تعددت
فيها اللجان وكثر منها الإرشاد والعمل . ما بال هذا الطالب
يشرك مع دراسته الديفية كل هذه المواد ، وماله لا يهدأ صيفا
ولا شتاء ، لعله غير مكثف بحاله في الجامع فهو يتوق إلى المجتمعات
والدراسات الأخرى ؟ ماله يقرن علوم الجامع بهذه العلوم ؟
وماله يوازن بين أساتذة الجامع في زعيم وتواضعهم ، وأساتذة
المدارس وخريجى دار العلوم خاصة ، فيرى في الآخرين نشاطا
ورشاقة وخفة ، ويسمع منهم طلاقة في اللسان ، ويحس منهم حدة
في الذهن ، ومعرفة في الخاطر وسدادا في الإجابة ، ترفعهم في
نظره ونظر كثير من إخوانه المجاورين ، كما كانوا يعجبون
بمشيتهم وملابسهم ونظافتهم ونظامهم ، ويحمدون منهم جرأتهم
في الحاجة ، ومنطقهم السليم . لعل هذا كله كان تمهيدا لبعده
القهرى عن الجامع ، وانتسابه فيما بعد لدار العلوم لم يكن هذا
المجاور ، ليختلط بالتلاميذ ، ويتطلع إلى المدارس ، بدون أن
يلم بطرف من اللغات الأجنبية . يذكر أن أول علمه باللغات
الافرنجية أنه تعلم كتابة اسمه بالحروف اللاتينية ، وشغف بهذه
المعرفة ، حتى إنه كان يضع تلك الحروف بالقلم الرصاص على

« لبدته ، الرومية ، التي كان يلبسها صغيرا ، أما بعد ذلك فقد هداه أحد تلامذة المدارس القاطنين معه إلى كتاب في اللغة الانجليزية لا يزال يذكر اسم مؤلفة ، وهو « جرجس ميلاد » ، ومن هنا وفي هذا الكتاب ألم بطرف من اللغة الإنجليزية . على أنه كان يقتحم المنازل بعمامة ليتعلم كلمة أو كلمتين على تلميذ يعرفه ، أو تعرفه ، وكان ، مع جهله باللغة ، يتعلمها بطريق السؤال ، فيدعي العلم بالفاظ ، ثم يسأل التلاميذ في معناها ، فتكون فرصة للنطق والحفظ . ولهذا غادر الجامع — بعد طرده — إلى الأزهر ، وهو على جانب من العلم بمبادئ اللغة الانجليزية ، سهل عليه دراسته للغة الفرنسية في المدرسة الإعدادية الليلية — على ما ستراه بعد .

فتنة

في سنة ١٣٢٦ هـ (١٩٠٨ م) صدر قانون إصلاح الأزهر ،
فقامت هناك فتنة ، وقضت الدراسة زمنا طويلا ، قصد إعلان
استياء أهله من هذا النظام . وقد كان على رأس هذه الحركة فتنة
من الطلاب ، بقيادة المرحوم ، الشيخ فهم قنديل . ولست
أدرى بالتفصيل ما فعلت هذه الجماعة ، وماذا كان مطلبها ، ولا
إلى أي نتيجة وصلت ؟ وكل ما في الأمر أن تلك الجماعة كانت
تخطب في الأزهر خطبا ، لا أعرف على وجه التحقيق نصوصها
ولا مرماها ، وإنما هي في موضوع هذا الإصلاح !!

الثورات كالحريق ، ينطاز شررها إلى مكان سحيق ، وقلما
يمكن حصرها في مكان واحد . لهذا اندلع لها إلى الجامع
الأحمدي ، وهو الأزهر الثاني ، وليس بعدهما إلا معهد
الاسكندرية وهو معهد جبل على النظام ، وسار في طريقه من
سنة ١٩٠٣ م فلا يشارك الأزهر إلا في موضوع الدراسة .
بل إن الأزهر يراد به أن يسير على نظام كنظام معهد
الاسكندرية ، وبذلك اقتصرت الفتنة ، بعد الأزهر ، على
الجامع الأحمدي .

يمتاز طلبة الأزهر باللسن والفصاحة ، لبيثهم وقربهم من

المعاهد الثائرة ، مثل مدرسة الحقوق في ذلك الوقت ، ولسهولة
اتصالهم بأمهات الصحف ، واستماعهم لكثير من المحاضرات
التي تلقى في العاصمة ، وشهودهم كثيرا من الحفلات والاجتماعات
العامة أو السياسية ؛ ولهذا كثر خطباؤهم ، فعمدوا إلى الخطابة
بعد انقطاعهم عن الدروس . أما طلاب الجامع الأحمدى فهم
وراء طلبة الأزهر في هذه الناحية ، بمراحل عدة ؛ وقل منهم من
كان يختلط بالأوساط الراقية كما يقولون ، ولهذا ندر فيهم الخطيب
وقل منهم الكاتبون . ولكن مهما كانت حالهم كذلك ، فلا بد
من أن يصطلوا نار الثورة ، وتدب بينهم روح الفتنة !

كان الأمر كذلك وبدأ الطلاب بالجامع يجتمعون ويتآمرون ،
ومشيخة الجامع تتعقب هذه المؤامرات ، وتبحث الفتنة من
جذورها ، بفصل الطلاب المتآمرين ، وإرسالهم إلى بلادهم . وكان
شيخ الجامع في ذلك الوقت هو : المرحوم ، الشيخ محمد حسنين
العدوى ، الذي خلف الشيخ محمد الرفاعي الهين اللين ، فكان حازما
يقظا ، بل بالغ في الحزم إلى درجة الشدة ، قعيا للاضطرابات
ومنعاً للفتن .

توالى فصل جماعات الطلاب المتآمرين ، وكثر سماع هذه
المآسى من الطلاب الباقين فلم يلبثوا أن سرت إليهم عدوى الفتنة
وكان لا بد من أن يلقوا بدلهم في التآمر بين الدلاء وقد أشعل

هذا الميل في نفوسهم ما كانوا يرون في المشيخة ، من استبداد
ومحابة ، وإيثار بعض الطلبة على بعض ، لصلة هؤلاء ببعض
الشيوخ ، وانقطاع أولئك عنهم ، ولا ريب في أن مثل هذه
الحركة كان ضروريا ، أو نتيجة طبيعية لتغيير نظام بنظام ،
أو لإحلال النظام محل الهمجية والفوضى ، كما يزعم دعاة هذا النظام
الحديث . امضى من السنة الدراسية ثلاثة أشهر ، والدروس
منتظمة ، وتلك المؤامرات تقمع ، فلا تستطيع عمل شيء ، وكثرت
الجواسيس في الجامع . وقد حدا هذا بعض كبار الطلبة ومتتوريهم
إلى أن يتآمروا كغيرهم ، ولكن مع الاحتياط والحذر ، لئلا
يقبض عليهم كما قبض على غيرهم ، بدون أن يعملوا شيئا . وإليك
حديث أحدهم عن سير المؤامرة ، ونتيجة هذه الثورة ؛ وليعذرني
القارئ . إذا استعملت كلمة « الثورة » فقد كانت عنوانا لما حصل
بالجامع الأحمدى سنة ١٣٢٧ هـ ١٩٠٩ م وإن كانت السياسة
أو التاريخ يعطيها معنى أو صبغة أخرى !

قال الراوى : رأينا أن المشيخة تتعقب الاجتماعات ، وتعرف
أمكنتها وأزمعتها بسهولة ؛ فعلينا أن نحصر على سرية المكان ،
وتغييره ، وبعده عن الجامع ، بحيث لا نلاحظ حركة الاجتماع .
أما الزمان فأنسبه ذلك الوقت الذى كان مشغولا فيه شيخ
الجامع ، وخدم المسجد واتباعه ، وجواسيسه طبعاً . هذا الوقت

كان بين المغرب والعشاء ، حين يقرأ الشيخ شرح « المقولات العشر » ، في جمع حاشد ، في إيوان من ايوانات الجامع . وكان المجتمعون في الدرس بين مستفيد ، ومُراء وخادم ، وحارس جاسوس !

نجحت هذه الاجتماعات ، فبدأ عددها قليلا ، وأخذ ينمو ويتكاثر ، حتى ضاقت بهم المنازل في الاجتماع الأخير ، فقرروا أن يكون هذا الاجتماع النهائي ، في الحقول ، عند « وابورالنور » وهو أبعد مكان عن السكن ، بينه وبين الجامع أكثر من ميل .

قال الراوى : وكان بين المحرضين على بث الفتنة وإشعال

نار الثورة ، أحد أقارب المشايخ ، وكان مأربه أن يحصل على معلومات عن « الثورة » يقدمها للشيخة عربونا لتعيينه ملاحظا في الجامع . وقد تم له ما اراد ، غير أنه لم يتمكن من العلم بمكان الاجتماع ، لأن المتآمرين كانوا يخشونه ويخشون أمثاله ، رغم إدلائه بآراء في توجيه الثورة . غدا تكون « الثورة » ! وفي ليلتها يذهب مئات الطلاب في وقت درس « الشيخ العدوى » إلى الحقول . وهناك يقف كبار الطلبة على مفترقات الطرق للحراسة ومعهم الأدلاء يرشدون إلى مكان الاجتماع ؟

قال الراوى : وبعد الغروب بنصف ساعة ، كان المجتمعون

في حقل محروث ، يكونون رقعة بيضاء ، لما كان على رؤس الطلبة

من العائم ، مستديرة ، قطرها يقرب من عشرين ذراعاً ؟ هربنا
من جواسيس المشيخة ، ولكننا فوجئنا بالعسس في « داورية »
ليلية بين المزارع ، فأسرعنا إليهم ، وبسطنا لهم أننا مظلومون ،
وقد جئنا هنا لنجتمع على طلبات لرفع هذا الظلم ، فانصرفوا
وتركونا بعد الدعاء لنا بالتوفيق .

النأم عقد الجمع فوقف أحدهم خطيباً ، متمثلاً بمقالة للمرحوم
السيد عبد الله النديم ، عنوانها هذى يدي ، في يد من أضعها ؟ !
وتلاه آخر ، وتنافس المجتمعون وقرروا الإضراب عن الدروس
غداً في درس الساعة العاشرة صباحاً . وكيف يكون الإضراب ؟
يرفع العلم الأحمر لإعلانه . ولكن إذا اتضح ذلك قبض على
صاحب العلم ! قال قائدنا : ليكن العلم منديلاً أحمر ، يتوضأ صاحبه
ويأتى على حافة صحن الجامع ويقف ليجفف يديه ووجهه بالمنديل
ثم ينفض المنديل ، فتكون إشارة الإضراب اثم قال : ولكن
هبوا أنه قبض على حامل العلم قبل أداء مهمته ، فيجب أن يكون
له خليفة ! وقد تم الاتفاق على ذلك واختاروا فلانا وفلانا لرفع
علم الإضراب والثورة . وليلاحظ أن الأمة والحكومة في هذا
الوقت لم يكن عندها فكرة الإضراب كما هي معهودة الآن عند
كل الطوائف .

قال الراوى : وبعد أن قرروا الإضراب في الساعة العاشرة

صباح غد ، اتفقوا على أن يجتمعوا في ناحية معينة من الجامع بعد تعطيل الدروس ليخطبوا ويتباحثوا ؛ وتلك كانت غلظتهم فإن كل مرحلة أتقنوا ترتيبها إلا هذه النقطة ، لأن وجودهم بالجامع مكثن الشرطة من أن تعيدهم إلى الدروس حالا بالقوة ؛ ولو أنهم قرروا الانصراف بعد وقوف الدروس ، وخرجوا من الجامع لكان حال الجامع غير ما كانت عليه ، بعد هذا الإضراب الفاشل ! بعد قرارهم هذا رجعوا إلى المدينة من نواح متفرقة ، عملا بوصية يعقوب ، فقابلهم بعض جواسيس المشيخة ، واسكن التكتم حال دون علمهم بشئ . هام اه .

أما أنا فكننت جالسا تناول الفطور ، قبيل الساعة العاشرة المضروبة ، وبين يدي خبز الراتب الجديد ذي الثلاثمائة درهم ؛ وبيننا أنا أتمتع بهذه الجراية ، التي كسبتها من طريق امتحان المسابقة التحريري ، إذ انقض على المرحوم ، الشيخ مصطفى الخشاب ، المشد ، وساقني إلى الإدارة واحتجزني في المشيخة ، ثم نزل إلى الجامع .

ولم تدق الساعة العاشرة ، حتى سمعت الصياح والهياج في الجامع ، فكان يعود إلى المشد متوعداً مهدداً ، وكان الصياح يخبو تارة ويزيد أخرى ، حتى جاءت الشرطة وأعادت النظام في الدروس بكل سهولة ، لخطأ فكرة اجتماع الطلاب بالجامع . وقد

قُبِضَ على عدد من الطلبة الهائجين ، وساقوا جميعا — حتى أنا —
إلى المحاكمة ، بتهمة الاعتداء على بعض المصلين والملاحظين .
فبتنا ليلة في مركز الشرطة ، بعد تحقيق استمر طول النهار .
وفي صباح اليوم التالي سبق غيرى إلى المحاكمة . وحكم عليهم جميعا
بغرامة على التضامن ؛ وبهذا انتهت تلك الحركة .

عدت إلى المنزل ، ثم إلى الجامع ، فطر دتني المشيخة ، بعد أن
بعثت لوالدى بالكتاب الآتى نصه :

المحترم ولى أمره محمد عبد الجواد ، الطالب بمشيخة
الجامع الأحمدى .

المشيخة رأت إبعاد هذا الطالب وسفره إلى بلده وحرمانه
من الدروس أسبوعا لفساد أخلاقه وسوء أعماله التى أضرت
بغيره حتى يحضر ولى أمره ويطلع على ما جناه مع العلم بأنه إذا
لم يفارق طنطا فى هذه المدة ويمتنع عن الاختلاط بالطلاب
مستنظر المشيخة لتقديمه للنيابة وللإحاطة أفدناكم .

١٣ صفر سنة ١٣٢٧ ٦ مارس سنة ١٩٠٩

شيخ الجامع الأحمدى

محمد حسنين (امضاء)

سافرت إلى البلد لقضاء الأسبوع ، فرأيت من والدى
حسرة لانقطاعى عن الجامع ، فى الوقت الذى أعده فيه ٦٠ جنيا

لتساعد في نيل درجة العالمية ، فلم يسعه إلا السفر إلى القاهرة ،
للسؤال عن صديق لشيخ الجامع يرجوه في إعادتي إلى حظيرة
الطلبة ، فعاد ومعه كتاب من أحد أصدقائه ، وتوجه لطنطا به ،
وصله إلى الشيخ ، فكان هذا مستندا جديدا لرفتي نهائيا ، وارسل
الجواب التالي إليه :

مشيخة الجامع الأحمدى

المحترم ولى امره محمد عبد الجواد ، الطالب بمشيخة الجامع
الأحمدى

مجلس الإدارة قرر محو اسم هذا الشخص من سجلات الطلبة
وحرمانه من العودة لسلك طلاب العلم ثانياً لفساد أخلاقه وسوء
أعماله التى أضرت بغيره وقد أبعدته المشيخة عن الدروس . - إلا
أنه إذا لم يفارق طنطا ويمتنع عن الاختلاط بالطلاب ستضطر
المشيخة لتقديمه للنيابة وللإحاطة أفدناكم ؟

شيخ الجامع الأحمدى

امضاء

محمد حسنين

تحريراً بطنطا سنة ١٣٢٧ ١٣ مارس سنة ١٩٠٩

(تذييل) وأزيدك أن جميع أعماله السيئة مسطرة لدى

المشيخة حرفاً حرفاً .

وهذه الكيفية انقطعت عن الجامع — كما انقطع كثير
غيري — ولم تنفع الشفاعات لدى الشيخ لأن الله أراد غير
ما يريد والذى . أراد — على الرغم من والذى — أن أدخل
دار العلوم ، وأن ألبس الحذاء وأسير به على البسط الأعجمية ،
لاعلى الحصر كما كان يقول ، وأن يراني متقبعا ، سائراً على
بساط فاخر .



ولما أراد الله دخولي دار العلوم ، فرحت تلك الشيعة
التي طالما عرضت على والذى ذلك من سنوات ، وحملي المرحوم
الشيخ الشرقاوي رسالة إليه ، يقول له : شاب المرء رغم أنفه .
هذا ، وفي الفترة التي بين مارس سنة ١٩٠٩ وسبتمبر
سنة ١٩٠٩ حصلت أحداث جديرة بأن أسجلها لك فيما يلي :

فترة

ما كل ما يتمنى المرء يدركه ! تأتي الرياح بما لا يشتهي السفن !
أراد والدي أن أكون من العلماء ، وأراد الله ألا أكون ! ولم
يرغب والدي في لحاقى بدار العلوم ، لما كان يرى من استهتار
طلبتها بالدين ، وانهما كهم فى العلوم الحديثة ، وظهورهم أمام
الناس ، لا بمظهر التواضع اللائق بطالب العلم ؛ ولكن الله قدر
أن أكون طالباً بدار العلوم ، وأن أكون علماً من أعلام
خريجها !

ألم أفصل من طلب العلم بالجامع الأحمدى ، وأنا على أبواب
امتحان العالمية ، بحجة سوء السلوك وفساد الأخلاق ، كما يقول
الكتاب الرسمى للشيخة ؟ !

يا لله ! هل من سوء السلوك وفساد الأخلاق ، أنى قضيت
بالجامع عشر سنوات كاملة ، لم أغب فيها يوماً أو بعض يوم !
ونجحت فيها فى امتحانات المعافاة من القرعة العسكرية ، والترقية
من الدرجة الثالثة إلى الثانية ومن الثانية إلى الأولى ، وكنت أول
الناجحين فى الامتحان التحريرى لاستحقاق الخبز الجارى
(الجراية) ؟ . قد استعد والدى لطلبات امتحان العالمية

مع ذلك وأنا في انتظاره ، ثم أبعد أخيراً لسوء السلوك وفساد
الأخلاق ولكن :

القضا تحكم فالزم السكون
لا تكثر لهمك ما قدر يكون !

انقلبت الحسنات سيئات ، وصار الصديق عدواً ، كل ذلك
كان تنفيذا لقضاء الله ! كان الشيخ أحمد الفقي (عفا الله عنه)
من لزمته من الأشياخ طويلاً ، بعد الشيخ مصطفى الجندى ،
فقد حضرت عليه الأشموني والسعد والشنشوري وبعض حكم
ابن عطاء الله السكندري ، وطالما وقفت في حفلات اختتام الكتب
التي كان يقرأها ، أثنى عليه وأروى مآثره وفضله ، كما كنت أحسن
الى بنت كريمته الوحيدة بتقديم الهدايا لها في المناسبات المناسبة .
أبى هذا الشيخ الصديق اللدود ، إلا أن يرد هذا الجميل بالشأن على
إطراء ذكائي عند التحقيق في سبب الفتنة التي رويت أخبارها .
حتى كان هذا المدح مساعداً على فصلى من الجامع ، لجهله بأن ذكاه
المرء محسوب عليه ! بل لقد بلغني أنه أغرى المشيخة بمخاطبة
الحقانية ، لرفق من المأذونية ، بعد إلغائها إعفائي من الخدمة
العسكرية .

لم أطق البقاء في القرية ، بعد قطع الأمل من وجودي بالجامع

على ما رأيت في الفصل السابق ، فرحلت إلى الأزهر ، علّيت أجد رحابه أوسع ، وقدمت الانتساب إليه ولم أدر أن إثبات اسمي هناك يحتاج إلى موافقة الجامع الأحمدى ، فكنت كالمستجير من الرمضاء بالنار ، وُرد الانتساب مع عدم الموافقة ، لأنى فصلت لسوء السلوك ، بتعريض الطلبة على الخروج على النظام . رضخنى هذا الأمر ، ولم تغن فيه حيلة ولا شفاعة ، وبقيت بالأزهر شهورا ، جلست فيها فى حلقات بعض شيوخه الأجلاء ، وفكرت فى توجيه مجهودى وجهة أخرى حتى تنتهى السنة الدراسية .

في المدارس الإعدادية

فرصة مواتية ، وبشرى لطلبة العلم بالآزهر الشريف ! قد افتتح ، الحزب الوطني ، من مدارسه والمدرسة الإعدادية الليلية ، لتعليم طلبة الأزهر اللغة الفرنسية ، لقاء أجر زهيد أو رسوم انتساب لا تتجاوز خمسة قروش في الشهر ! والظاهر أن الغرض - كان - من افتتاح هذه المدرسة ، بجانب المدارس النهارية ، هو إعداد بعض الشبان الأزهريين النابغين لبعوث علمية سياسية في أوروبا للمساعدة في نشر الدعوة الاستقلالية التي يقوم بها الحزب في ذلك الوقت .

لم يكن يعنيننا نحن الطلبة ، سبب افتتاح المدرسة حينئذ ، فالأمر في نظري لا يعدو أن يكون انتساباً إليها قضاء وقت في تحصيل لغة أجنبية بأجر زهيد كهذا الأجر ، لعلى أن اللغة الأجنبية ضرورة لكل من يريد أن يكون مثقفاً ثقافة جيدة !

لحقت بالمدرسة واشتغلت بها شهوراً ، قرأنا فيها كتابين وبعض الثالث من كتب Machuel وتعرفنا فيها بعض أساتذة وطلاب ، وكانت لي في هذا المحيط متعة اجتماعية لأنها كانت أهم عندي من الفكرة العلمية ، أما الفكرة السياسية فلم يكن لها حظ من تفكيرى ، لأنى مكوى بنار السياسة الدينية في معاهد العلم .

ومن أعجب ما حدث في أثناء وجودي بالمدرسة ، أنى غبت عنها
أسبوعين في أوائل افتتاح الدراسة بها ، وعند عودتي إليها صادفتني
اختبار حصلت فيه على درجة ٧٠ أعقبها الاستاذ بقوله : خاب
ظنى فيك ، فلعلك تسترجع ثقتى بك في الاختبار المقبل إن شاء
الله ! آلمتنى هذه الملاحظة وإن كان لى عذر الغياب والعودة يوم
الاختبار ، فدعاني ذلك للمواظبة والالتفات ، ولم يأت اختبار
١/٥/١٩٠٩ حتى حصلت على درجة ٧٠/١٨٠ أي ١٣.٣٣ مع
العبارة التالية : لله درك أيها الفاضل ! فحمدت الله على هذه النتيجة
ولازات محتفظاً بورقتي الامتحانين .

وأعترف بأنى قد حصلت على نصيب من اللغة الفرنسية
لابأس عليه ، وأصبحت بحق أدعى أنى أعلم من اللغة الفرنسية
قليلاً ، Un peu !

جاء الصيف بإجازته ، وغلقت المدرسة أبوابها ، وليس لى طاقة
على السفر الى القرية ، كالمعتاد ، لأنى اندمجت مع طلبة هورين
وأولاد الشيخ الشرقاوى الذين يعدون أنفسهم لدخول مدارس
القضاء الشرعى ودارالعلوم ، فلم يكن بد من أن أكون ممن يعدون
العدة لذلك احتياطاً ، حتى إذا مافاتنى الانتساب أول العام دخلت
دارالعلوم بالاحتفال اللائق كما سنرى !

إلى دار العلوم

كان من السهل أن أستعد عليا لدار العلوم ، لأنى قضيت أحد عشر عاما دراسياً هجريا فى طلب العلم ، وكنت منذ سنتين أو أكثر أساعد كثيراً من لحقوا بها من الطلبة ؛ فقوى العلمية فى العلوم الدينية والعربية موفورة ، كما ان عقبات العلوم الحديثة التى كانت تعترض طلبة الازهر حينذاك لاتقف فى طريقى ، لعلى بها علماً وافياً .

وليس أمامى من العقبات فى سبيل دخول دار العلوم ، إلا الحصول على شهادة حسن السير والسلوك ، الضرورية لضمها لطلب الانتساب إليها ، ومن لى بها وأنا بين الجامع الاحمدى والازهر على الحال التى علمتها ؛ ليس ذلك بالعسير مادمت محسوبا بين طلاب هورين ؛ على أنى كنت متصلا ببعض شيوخ الازهر وهم يوقعون أمثال هذه الشهادة ، بلا حساب ولا تدقيق .

تقدمت لدار العلوم ، وأحضرت منظاراً للكشف الطبى محاكاة لغيرى من قصيرى النظر ، ولكنى لم أستعمله ، لأنى كنت غير محتاج اليه وأديت امتحان الدخول التحريرى فنجحت فيه بترتيب السادس وبعد اداء الامتحان الشفوى كان ترتيبى الرابع .

لم يكن هناك مانع من الدخول ، لأن ترتيبى متقدم ،
ولكن هل خرجت من الجامع بالسهولة التى يخرج بها غيرى
من الطلبة ، فأدخل دار العلوم كما يدخلون ؟ أبت المقادير إلا أن
يُحاط دخولى بسلسلة من العراقيل والاحداث ، باطنها فيه الرحمة ،
وظاهرها من قبله الألم والأسف !

طلبت الدار إلى الناجحين وعددهم ٥٤ أن يستعدوا للدخول
باعداد الملابس الرسمية (الجبة والقفطان والحذاء الجازم)
وحددت يوما لإعلان المقبولين نهائياً . انصرفنا فى طلب هذه
الملابس وعُدنا يوم الثلاثاء لقراءة أسماء من سيدخلون المدرسة
يوم السبت المقبل ، وكان يوم حشر للطلاب ، علق فيه اللوح بأسماء
المقبولين وعددهم ٢٥ فقط فلم يكن من بينهم محمد عبد الجواد ،
قد كان بين العشرين المرفوضين ، رغم ترتيبه الرابع ارجعت !
بعد هذه النتيجة أجز أذيال السرور باسماء بل ضاحكا ، لأنى أعلم
أن دخولى المدرسة على غير أساس ، لما كنت أظنه من ضعفى
رغم نجاحى متقدما ، ومن خرج مركزى ، إذا طاردنى شيخ
الجامع وأخرجنى منها ، كما حرمنى الالتساب إلى الأزهر الشريف
ويروى لى بعض اخوانى ، فيما بعد ، عجبه وعجب أخيه من عودتى
ضاحكا بعد سوء النتيجة ، مع ان جميع المرفوضين عادوا
باكين أسفين ؟ !

ولكن علام الأسف والبكاء ؟ ! ليس في الدنيا شيء
يؤسفني بعد ضياع مجهود أحد عشر عاما ، بدون ذنب جنيته ،
الإعتملا صبيانياً ، شاركني فيه مئات من الطلبة ، لم يظهر منهم
ولم يسوِّحظ أحدهم ، ولم يهتم الشيخ محمد حسنين إلا بي أنا وذلك
الجسم المملوء شرورا ، كما كان يقول عندما رآني بين يديه ،
ووالدي يتضرع إليه بإعادتي إلى حظيرة طلب العلم بالجامع ،
ويقول له ياسيدنا الشيخ « قل للذين كفروا إن ينتهوا يغفر لهم
ما قد سلف » ، ويأبى ، تنفيذا لقضاء الله وقدره !

كان الناس يعزوتني عن عدم الدخول ، فأعجب من سخف
عقولهم ، وأقول في نفسي : هل قاتني شيء أعزى عنه ، أنا صحيح
الجسم معافى ؟ ! غير أني عدت إلى القرية أحمل ملابس المدرسة
في صرة نظيفة ، فما إن وقع عليها نظر والدتي (رحمها الله) حتى
دارت بها الأرض ، وصفرت أذناها و « وشَّت » ، أي طنَّت !
وقد بقي هذا الأثر معها حتى المات ! وإذا كنت لم أجزع من
وقع تلك الحوادث ، فإن ما كان من والدتي أهم شيء آلمني في
عدم دخولي دار العلوم في وقتها . ولاتسل عما أصاب والدي
انفوات غرضه الأول وهو حصولي على شهادة العالمية ، ولما نلاه
من عدم قبولي بدار العلوم بعد نجاحي ، وهو الهدف الأخير !
ويل للآباء من الأبناء !!

هذا يكون حال الوالدين ، وابنه هادئ مطمئن للبقاير
والأحكام ! يقول الولد : اعلام تحزن الأم ، ولماذا يأسف الأب ؟
وابنهما بخير ! ولسان حال الوالد يقول : كيف لا يأسف الوالد
وهو في انتظار جنى ثمار تعبته في حياته سنوات طوالا ، يرقب
فيها ابنه يرقى مدارج الرقي ، حتى إذا ما انتهى إلى المرحلة
الآخيرة ، كان كالنملة التي تجاهد في تسلق أسطوانة عالية ،
فلا تكاد تصل إلى قممها حتى تزلق أرجلها فتعود حيث بدأت ؟
وهل في حياة الوالدين بقية تعادل تلك السنوات الماضية من
عمر ابنهما ؟ ومن ذلك الوقت والطالب يردد هذه العبارة الآتية :
ويل للآباء من الأبناء ! غير أنك إذا اطلعت على خبيثة نفسه
وجدته يقابل الحوادث القاسية بدون اكتراث ، فهي تصدمه
فلا يتعلم ولا يتضرر ولا يتزعزع ، معتقداً أن كل أحداث الزمان
سحابة صيف عن قليل تقشع ! وبقاء الحال من المحال او قد يكون
الأب متصنعاً في زجره لولده حتى لا تموت عاطفته العلية ، وقد
يكون متفقاً مع ابنه في فكرته نحو صدمات الزمان ، مؤمناً
بقوله تعالى : لكيلا تأسوا على ما فاتكم ، ولا يجهل ما ترمى إليه
الآية الكريمة : وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم ، وعسى
أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم . ، !

دخل الطلاب المقبولون دار العلوم في أوائل أكتوبر

سنة ١٩٠٩ ، وعدت أدراجي إلى الأزهر ، فجددت الانتساب إليه مستعينا على قبوله بالأستاذ الجليل المرحوم الشيخ محمد ماضي الرخاوى ، وكان من خيار العلماء الصالحين ، كما استعان والدى بابن خال أمى ، وكان يزعم أنه يعرف سعد زغلول باشا « ناظر المعارف » ، مذ كان محاميا ، وسيخاطبه فى أمر دخولى دار العلوم . ولكن ، ألم يكن صهره « إدريس بك » ، أستاذا كبيرا بدار العلوم وكان هو المهيمن على قبول الطلاب ، وكان فى استطاعته أن يجعلنى من المقبولين ما دمت ناجحا متقدما ؟ ! أراد الله ألا يجعل على « يدا لأصهار فى دخول دار العلوم » ، ولا لهذا الشيخ الجليل فى قبول الانتساب فى الأزهر ، فدخل مشيخة الأزهر من باب ، وخرج من الباب الآخر ، ورُدَّ الانتساب مرفوضا من الشيخ شاكر ، وكلمته كانت الأولى والأخيرة ، كما تخطتنى دار العلوم فى القبول بها ، ولم ينجح هذا الحال فى رجاء سعد باشا ، فكتب إلى يقول : « كُنت صديقا لى بالمعارف فقال إن الفرصة قد فاتت هذا العام ، فاجتهد فى دروسك ، وبركة دعاء الوالدين تحصل إن شاء الله والسلام . »

تسلبت الانتساب المرفوض ، وشفعته المقادير بهذا الخطاب فأسلت أمرى يومئذ الله ، الله وحده الذى عودنى ألا ألبأ لمخلوق فى مهمة ، فليس لأحد أثر فى الوجود غيره ، ولم يفتنى أن

وبخت نفسى على إغفال تلك العقيدة وقتما ، ويئست من رجاء
المخلوقين وعدت إلى الخالق ، مستنجداً ببركة دعاء الوالدين ،
حين اشتدت الأزمة ، واشتدادها كان مفتاح الفرج ! جلست
يوم الثلاثاء ٢٦ من أكتوبر سنة ١٩٠٩ حوالى الساعة التاسعة
فى مجلس بالأزهر ، وحولى بعض إخوانى يصوغون لى عبارات
الأسى والأسف ، لما حل بى من كل ناحية ، وحضر بعضهم
فضايقتى بطلب يفض هذا المجلس ، فأردت صرفه عنى ووجهته
إلى « الحاج مرسل البنان بجوار الأزهر » ، وهو محط المكاتبات ،
ليبحث عن الخطابات ، فعاد ومعه خطاب باسمى ، ففضضته فإذا
به من أبى محولاً من مراسلى ، مرسلًا من دار العلوم تطلب فيه
أن أتوجه إليها صبيحة الثلاثاء ، إذ قبلتنى طالباً بها !! الله أكبر ؟ !
طويت الخطاب بهدوء ، وانصرفت إلى المنزل ، بعد استئذان
من حولى ، ولبست ملابس دار العلوم ، ومثلت أمام وكيلها
قبيل الظهر ، بعد أن قدمت له جواب القبول ، فعجب من أنهم
تخطونى ، مع حصولى على الدرجة التى حددوها فى الخط لقبول
الطلاب !! لست أريد أن أودع القارىء ، بعد أن جلست على
كرسى فى دار العلوم ، قبل أن أقص عليه حكاية وأسطورة !
أما الحكاية فهى أن الأسابيع الثلاثة التى مضت بعد دخول
من سبقونى إلى دار العلوم كانت مجال أخذ ورد فى عدم دخولى

الدار ؛ ورحم الله أستاذى عبد الرحمن زغلول حين قال للطلاب
وقت انتظار النتيجة : إنهم تركوا الرابع فى الناجحين !!

ومن العجب حقاً أن يترك الرابع ، ويقبل الرابع والأربعون !
وما علينا أن نبحث عن أنهم اختصروا ٥٥ طالبا إلى ٢٥ لتوفير
فصل من دار العلوم ، لفتحه فى مدرسة القضاء الشرعى ، التى كانت
تزاخم دار العلوم إذ ذاك ، وليكتفوا بفصل واحد ؛ وإنما الذى
يهمنى أن نسرّد الحكاية .

كان صديقنا (المرحوم) الشيخ على عبد الخالق الطالب
بالسنة الثانية بالمدرسة ، محور الهمس الخاص بدخولى ، وكان
يود من قلبه أن أدخل دار العلوم - أخذ يدعو لوجودى بها
ويعرض بكفايتى ، وخاطب فى ذلك أستاذنا الحبيب الشيخ محمد
نفر الدين أستاذ الخط ، فقال له : من عبد الجواد هذا ، الذى
تذكرنا به فى كل حصة ؟ ليكتب لى ورقة أتبين منها خطه ا ،
وإجابة لرغبته كتبت له ورقة خط أشبه بورقة الامتحان ،
هذه صورتها :

الثلث : بشر من جاور الكرام بعز
واحترام

النسخ : وأعلم بأن التبر في عرق الثرى

خاف الى أن يستشار بنبدشه.

الرقعة : مع سوء الحظ أنه فاتني عمله الحظ في الومحاه

هنا محاذك العزاء المقيم فما عيسى المحزونه منى نسما

عجب الأستاذ الشيخ نحر الدين ، لما قرأ في هذه الورقة من أقوال مقصودة أو غير مقصودة ، ولما رأى من خط حسن ؛ ولكنه بعد أيام أخبر الشيخ على أن د بلديك ، سيقبل بالمدرسة غير أن صديقنا لم يكن يعتقد تحقق هذا النبأ ، حتى إنه بعد أن رأى في فناء الدار بجبتي وقفطاني قال متمنيا : أما لو كنا نلتفت فتراك معنا ؟ فقلت له : أنا معكم ، أنا في الدار ، ولكنى سأخرج للغداء خارجها ، لأنى حضرت بعد كتابة عدد الطاعمين ! وقبل أن أنتقل بك إلى الأسطورة ، أذكر أن الأستاذ الشيخ محمد نحر الدين هذا ، كان مثار إعجاب من لم يكونوا تتلمذوا عليه ، بله تلاميذه ، فكنا نحن الطلبة في امتحان الدخول نشعر بدماثة خلقه ورقته وظرفه ؛ وللتاريخ والتدليل على هذا سميت باسمه أول أبنائى : محمد نحر الدين ، الذى ولد فى ٩ من سبتمبر سنة ١٩٠٩ فى أثناء امتحان الدخول ، وكان قد كتب الى والدى طالبا تسميته .

وأما الأسطورة فقد سمعت ، ولا أذكر من ، أن كان

من الطلاب المرفوضين طالبان ، أحدهما ترتيبه ١٢ والثانى ١٨
وكانا محسوبين ، على صديقين عزيزين لسعد زغلول باشا ، إلا
أن صلته بواسطة المتقدم أضعف من صلته بواسطة المتأخر ، وكان
كل من الصديقين يسعى لدى سعد باشا فى قبول طالبه مع عليه
بمسعى الآخر . فتحير سعد باشا ، ناظر المعارف ، إذا ذاك ، وقال
إن أرضيت العدالة وقبلت المتقدم ١٢ غضب الصديق الآخر
وهو على عزيز . وإن أرضيت هذا الصديق وقبلت المتأخر ١٨
أغضبت العدالة وضميرى والله ؟ ثم قال للموظف الذى يعرض
عليه الأمر : أليس هناك غير هذين الطالبين ؟ فقالوا له هناك
طالب ترتيبه الرابع ! فتنفس الصعداء ، وأمر بقبولى ، قائلاً :
لنعتبر أن الله يوصى به ، وبذلك استراح ضميره وأرضى صديقيه .
هذه أسطورة ، ألقيت إلى ، ولا علم لى إلا بمدلولها ، أما
قائلها وشاهدها وزاويها ، وصحتها ، فعلم ذلك عند الله (١) !
ولعلك سائل : كيف قبلت بالمدرسة بعد أكثر من عشرين
يوماً من افتتاح الدراسة ودخول المستجدين ؟ ليس الأمر
غريباً ، فقد اشتبه الطبيب فى طالب من المقبولين ، مريض
بذات الصدر ، فتقرر فصله ، وبذلك خلا مكانه فاحتاجوا إلى

(١) أخبرنى بعض الأصدقاء أخيراً ، أن الذى روى هذه الأسطورة

هو المرحوم أستاذنا عبد الرحمن زغلول ابن أخى سعد زغلول باشا .

طالب جديد يحل محله . وكان سعى بعض المرفوضين ثم كان قبولي مكان هذا الطالب على ما رأيت وسمعت .

أما الطالب الذي حللت مكانه ، فقد دخل دارالعلوم في العام التالي ، وتخرج في سنة ١٩١٥ بعدى بسنة ، بعد أن كنت سأكونه ، والله المقدم والمؤخر ! ولا زال أخونا هذا ممتعا بالصحة والعافية ونحن في سنة ١٩٤٧ م .

هذا وإلى اللقاء — أيها القارئ الكريم — في دارالعلوم !

كلمة تاريخية الجامعة الأزهرية

حينما فتح عمرو بن العاص مصر ، وبنى بها مسجده سنة ٥٢١ هـ اتخذها جماعة من الصحابة والتابعين ، مركزا عليا لنشر الدين الإسلامي ؛ وكان زاوية للامام محمد بن ادریس الشافعي يدرس فيها مذهبه ويدون آراءه ، وفيه وعليه تخرج كثير من العلماء الذين اشتغلوا بتدوين مذهبه .

وقد ظل التدريس في الجامع العتيق مدة طويلة ، وهو عامر الحلقات ، ثم اقتنى أثره جامع احمد بن طولون .

ولما فتح الفاطميون مصر : ٣٥٨ هـ (٩٦٨ م) ، بنى جوهر قائد المعز لدين الله ، الجامع الأزهر بعد عام من فتحها ، وفتح للصلاة فيه سنة ٣٦١ هـ ٩٧٢ م وابتدأ التدريس فيه سنة ٣٧٨ هـ . ويقال إن تسميته بالأزهر إشارة إلى السيدة فاطمة الزهراء رضي الله عنها .

والأزهر هو المسجد الجامع ، وهو الجامعة الإسلامية الكبرى ؛ التي استقر بها تدريس العلوم الدينية ، بعد أن بدأ بالمسجد العتيق ، منذ الفتح الإسلامي .

وقد كان الأزهر موضع عناية الخلفاء الفاطميين ، فزادوا في بنائه ، وحبسوا عليه الأوقاف . وفي عهد الأيوبيين أنشئت المدارس التي كانت تدرس فيها علوم اللغة والدين ، فخلا منها الأزهر . وقد منع صلاح الدين الأيوبي سنة ٥٦٧ هـ ١١٧١ م الخطبة فيه ، اكتفاء بخطبة جامع الحاكم ، عملا بمذهب الشافعي في عدم إقامة خطبتين في بلد واحد ، كما أنه قطع كثيرا من الأوقاف التي حبسها عليه الحاكم .

ولكن الملك الظاهر بيبرس سنة ٦٥٨ هـ زاد في بنائه ، وشجع التعليم فيه ، وأعاد إليه الخطبة سنة ٦٦٥ هـ ١٢٦٧ م ، وقد حذا حذوه كثير من الأمراء . ومنذ ذلك العهد ، ذاع صيت المسجد ، وأصبح معهدا علميا يؤمه الطلاب من كل فج ، ولقي من عناية البلاد شيئا كثيرا ، وبخاصة بعد سقوط بغداد سنة ٦٥٦ هـ وإتلاف كتبها وذخائرها العلمية ، وانحلال مدارس العلم في المشرق والمغرب .

وكان قايتباي أكثر الولاة رعاية للأزهر في القرن التاسع الهجري ، كما أن عبد الرحمن كتبها سنة ١١٩٠ هـ زاد فيه زيادة عظيمة ، وجدد فيه كثيرا ، وأنشأ به منشآت عدة .

أما في العهد العثماني فقد أفل نجمه قليلا ، غير أن المتأخرين من الخديويين عملوا على إعادة مجده ، واتساع صيته ، وآثار

عباس ، وفؤاد ، وفاروق به ، لا تزال ماثلة أمام الأعين .
وكان للأزهر أهمية عظيمة ، اكتسبها من موقع مصر في
وسط العالم الإسلامي ، وقربها من الحجاز ، وصبغتها العربية ،
وأهميتها الاقتصادية ، ولعراقه وادى النيل في الثقافة العقلية
القديمة ؛ ولهذا كان قبله أهل العلم من جميع أنحاء الكرة ، كما يدل
على ذلك ما به من الأروقة ، التي ضمت الأتراك والهنود والجاويين ،
والدكراتة وأهل الحرمين الشريفين ، واليمن والعراق والبرابرة ،
والصوماليين ، والأفغان والشوام والمغاربة وأهل بورنيو وغيرها .
وقد كانت طريقة التعليم فيه أولاً ، وقبل كثرة المؤلفات
وانتشارها ، الطريقة الإملائية ، وفيها يملئ الأستاذ على الطلبة
ما يريد من المسائل . ثم جاءت طريقة الشرح والتفسير للمتون
أو المختصرات ، وكان عمادها الحوار بين الأستاذ والطلبة ، مما
ينمي القوى العقلية ويربي ملكة الفهم .

وقد بقي الأزهر في عزله ، يسير سيرا فطرياً ، أساسه
التقوى واحترام الدين وأهله ، ولا يسير النهضة الحديثة ، فلم
يكن به شيء من مظاهر النظام والترتيب ، في التدريس والامتحان ،
والمواظبة والمرتبات وغيرها ، حتى جاء المغفور له الخديو
إسماعيل باشا ، فوضع أول قانون للأزهر سنة ١٢٨٨ هـ
(١٨٧٢ م) وهو المعروف بقانون الشيخ المهدي . وقد نظم هذا

القانون طريقة الحصول على شهادة العالمية ، ونص على مواد الامتحان ، وقسم الناجحين فيه إلى ثلاث درجات (أولى وثانية وثالثة) .

وفي ٢٠ من المحرم سنة ١٣١٤ هـ (أول يوليه سنة ١٨٩٦ م) صدر القانون الثامن للجامع الأزهر ، وقد أضاف للعلوم الدينية كثيرا من المواد الجديدة ، هي : الأخلاق ومصطلح الحديث ، والحساب والجبر ، والعروض والقافية ، وجعل التاريخ الإسلامى والخط والإنشاء ومتن اللغة ومبادئ الهندسة ، وتقويم البلدان مواد اختيارية ، يمتاز بمحصلها عن غيره ، ويقدم عليه فى الوظائف والمرتبات . وكان الفضل فى ذلك للجهود الذى بذله المرحوم الشيخ محمد عبده ، ولروح الإصلاح الذى أراد بثه فى نفوس الأزهرين ، ولكن خروجه من مجلس إدارة الأزهر ، ثم وفاته سنة ١٩٠٥ م أحدثا فى الأزهر حركة رجعية ، غير أن معهد الاسكندرية كان قد أسس سنة ١٩٠٣ م .

ولما أنشأت الحكومة مدرسة القضاء الشرعى بقانون سنة ١٩٠٧ م وصدر القانون رقم (١) للجامع الأزهر وماشاكاه من المدارس الدينية العلية الإسلامية بتاريخ ٢ من صفر سنة ١٣٢٦ هـ (٥ من مارس سنة ١٩٠٨) ، المعروف بقانون النظام ، قامت بالأزهر فتنه ، انتهت بإصدار القانون رقم (١٠ لسنة ١٩١١ م) وقد اعتورت هذا القانون الأخير ،

تعديلات بقوانين أخرى، أظهرها قانون رقم ٤٩ لسنة ١٩٣٠م الذى به أنشئت ثلاث كليات للدراسة العليا لمدة أربع سنوات ، بعد القسم الثانوى ، ومدته خمس سنوات ، والقسم الابتدائى ، ومدته أربع سنوات . والكليات هى . كلية أصول الدين ، وكلية الشريعة وكلية اللغة العربية ، كما أوجد تخصص للمادة وتخصص المهنة .

ولما تولى الشيخ محمد مصطفى المراغى مشيخة الأزهر سنة ١٩٣٥ م أراد أن يرجع بالأزهر إلى عصوره الزاهرة من البحث العلمى الصحيح ، ويكون دطالبا يفهم مسائل العلوم فهما صحيحا ويدرك أغراضها وصلاتها ، ويستطيع الاستنباط والتدليل ، وفهم الكتب التى ألفت فى العصور المختلفة فى جميع الفنون الإسلامية ، فعمل على إعادة تنظيم الجامع الأزهر والمعهد الدينى العلمى الإسلامية ، باستصدار مرسوم بقانون رقم ٢٦ لسنة ١٩٣٦ م الذى عدل بمرسوم بقانون رقم ٨١ لسنة ١٩٣٧ م وبقانون رقم ٦١ لسنة ١٩٣٨ م

المعاهد الدينية التابعة للأزهر

أطلق اسم الجامع الأزهر أخيراً على كليات التعليم العالى
(أصول الدين ، الدعوة والإرشاد ، والشريعة للقضاء الشرعى ،
واللغة العربية للتدريس بالمدارس) وعلى أقسام التخصص .
أما المعاهد الدينية فيراد بها معاهد التعليم الدينى الإسلامى
التي تعد الطلاب لدخول الجامعة الأزهرية .
والمعاهد الدينية الموجودة الآن هى :

- ١ - المعهد الأزهرى بالقاهرة وبه قسم ابتدائى وقسم ثانوى
- ٢ - معهد الاسكندرية (١٩٠٣ م)
- ٣ - معهد طنطا (١٩١٣ م)
- ٤ - معهد أسيوط (١٩١٥ م)
- ٥ - معهد الزقازيق (١٩٢٥ م)
- ٦ - معهد دمياط سنة ١٣١٣ هـ وبه قسم ابتدائى فقط
- ٧ - معهد دسوق سنة ١٣١٤ هـ
- ٨ - معهد شبين الكوم (١٩٣٧ م)
- ٩ - معهد قنا (١٩٣٨ م)

ويجدر بنا أن نختتم صفحات هذا الكتاب بكلمة عن
المعهد الاحمدى ، خاصة ، لأنه خليفة ، الجامع الاحمدى .

المعهد الأحمدى

(١) لما ضاق نطاق الجامع الأحمدى بالطلاب ، أنشئ المعهد الأحمدى الجديد . وقد تم بناء الطابق الأرضى منه ، مع معدات التعليم فيه ، فى أواخر رمضان سنة ١٣٣١ هـ وبدأت الدراسة فيه يوم ٢١ من شوال سنة ١٣٣١ هـ (٢٢ من سبتمبر سنة ١٩١٣) .

(٢) وهو بناء نفخ ، على النمط العربى الجميل ، بجوار محطة السكة الحديدية (وهذا ما نأخذه على اختيار هذا المكان ، بين صغير القُطر ، وأصوات العجلات ، وقعقة الحديد ، وفى مهب دخان القاطرات) ، وهو بأول شارع ~~السكة الحديدية~~ ، يشغل مساحة واسعة ، وله بابان أحدهما فى الشمال والثانى فى الغرب وبه دائرتان مشتملتان على ٣١ حجرة لراية ، محيطة بايوانات كالمساجد العريية ، وثلاث حجر للإدارة ومسجد جميل يحلى صدره ، ومطهرة فسيحة . وقد تم بناء الطابق الثانى منه فى عهد المغفور له السلطان حسين كامل .

ويعتبر بناء المعهد الأحمدى (وما تلاه من المعاهد الدينية التى بنيت بقواعد الأقاليم الأخرى) ، دخولا فى طور حديث من أطوار دور التعليم الإسلامى .

فقد كانت حلقة الرسول صلى الله عليه وسلم ، فى مسجده ،
أول حلقات التعليم فى الإسلام ، ثم تلاها حلقات العلماء فى
المدارس التى كانت تجمع بين المدرسية والمسجدية ، أى بين
الدراسة والعبادة .

وباستقلال هذه المعاهد وانفرادها ، امتنع التهويش واختلاط
الأصوات التى كانت فى الجوامع ، وأصبح الاستعداد لتعليم
العلوم الحديثة سهلاً وميسوراً ، بطرق علمية وعملية .

« والله أعلم »

